زانكۆى سەلاحەدین-هەولێر
Salahaddin University-Erbil

التفسير الموضوعي

جامعة صلاح الدين

كلية العلوم الاسلامية

قسم: الدراسات الاسلامية

المرحلة الرابعة

2021

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

فقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم هدى ونورا، وأمرنا بتدبره، وهو منبع الخير كله، ومطلع الهداية التي أشرقت أنوارها على القلوب، فبدد منها الظلمات واستأصل منها الضلالات بما فيه من دلائل الحق والصدق، قال تعالى: { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} . ولا سبيل للتدبر وتحقيق القرآن في الحياة وتطبيقه إلا بمعرفة القراءة الصحيحة، والفهم السليم لأحكامه وآدابه، والكشف عن أسراره، واستخراج كنوزه، وهذا يتحقق بتفسير القرآن لأنه من أشرف العلوم. وللتفسير الموضوعي أهمية فائقة، وضرورة ملحة في هذا العصر، لأنه متعلق بحل كثير من المشكلات التي ظهرت وتجددت وتنوعت، وأصبح الناس حائرين في حلها، وعلموا أن الحل في دراسة هذه الموضوعات من خلال القرآن الكريم" لأنه الكتاب الإلهي الذي أودع الله تعالى فيه جميع الحلول في كل زمان ومكان، لذا اتجه الناس إلى دارسته وفهمه وعرض هذه المشاكل عليه، واستنباط الحلول من آياته.

التفسير الموضوعي: "تعريفه- نشأته- تطوره- ألوانه- أهميته"

تمهيد:

الحمد لله الذي أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين بشيرا ونذيرا، والصلاة والسلام على من أرسله ربه داعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، ورضي الله عن الآل والأصحاب والأتباع حملة لواء الحق بين العالمين إلى يوم البعث والنشور.

أما بعد:

فلم يشهد التاريخ البشري كتابا أهل أمة لقيادة البشرية، كما أهل القرآن الكريم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولم ينقل أحد أن جيلا ربانيا تولى السيطرة على مقادير الأمم والشعوب فعدل فيها بالقسطاس المستقيم كجيل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كل ذلك كان في فترة زمنية لا تتجاوز ثلث قرن من الزمان، وهي مدة قصيرة جدا في عمر الأمم والشعوب. لقد تخرج من مدرسة النبوة جيل فريد في صفاته وتطلعاته وعزيمته وبذله وتضحياته، وقد فجر الإسلام هذه الطاقات الكامنة في تلك النفوس وأزاح عنها الغبش والغشاوة وفتح أمامها مجالات العطاء والإنتاج فكان بعضهم قادة الجيوش، وساسة الأمم، وعباقرة العلماء، ونوابغ القضاة، وأفذاذ الزهاد والعباد.

وما ذاك إلا لتوافر أسباب النبوغ والعطاء.

فالمعادن الأصلية التي كانت في ذات القوم –والناس كالمعادن- فكانت معادنهم كالتبر والجوهر.
ووجد المربي الرباني الذي علمهم فأحسن تعليمهم وهذبهم أحسن تهذيب ووجد الغذاء الروحي الذي تحيا به القلوب ...

فلم يكن بمستغرب عند من يدرك سنن الله في خلقه، في رقي المجتمعات وتقدمها عندما يدرك الأسباب التي أوجدها الله سبحانه وتعالى لتكوين هذه الأمة وتقدمها وتفوقها. وما أن رسخت الدولة الإسلامية قواعدها في أرجاء المعمورة، وما أن هدأت اندفاعة الفتوحات الإسلامية، حتى التفت العلماء إلى مدارسة القرآن الكريم الذي يشكل أساس النجاح والفلاح في

الدنيا والآخرة، لتدوين تفسيره والعلوم التي تخدم توضيح المراد من كلام رب العالمين، وتعين على فهمه وتطبيقه وكانت الأجيال السابقة إلى عهد بني العباس تعتمد بشكل أساسي على التلقي والرواية مشافهة إلا في حالات استثنائية قليلة.

وتنوعت المجالات التي توجهت الجهود إليها لخدمة آي الذكر الحكيم. فمنهم من توجه إلى جميع ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمور الدين، وعن صحابته الكرام، ومنهم من توجه إلى حفظ وجوه الأداء للفظ القرآني، ومنهم من حافظ على لغته وبيان معاني غريبة، ومنهم من توجه إلى استنباط القواعد التي تكفل سلامة التحدث به وعدم اللحن فيه.

وقام صرح العلوم كلها لخدمة القرآن الكريم حفظا وفهما وتطبيقا، ولسنا بصدد تعداد العلوم المختلفة التي قامت وتاريخ تدوين هذه العلوم، وإنما نرمي إلى بيان نشوء علم التفسير بإيجاز، ومن ثم للتعرف على مولد هذا اللون من التفسير ما يطلق عليه اليوم "التفسير الموضوعي".

نبذة تاريخية عن نشوء علم التفسير وتطوره ومكانة التفسير الموضوعي:

بينت الآيات القرآنية الحكمة الإلهية من خلق الإنس والجن في قوله تعالى: {وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون} ﴿الذاريات: 56﴾ .

كما بينت السنة الإلهية في بعثهم بعد موتهم لمحاسبتهم عن الأمانة التي حملوها: {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون} ﴿المؤمنون: 115﴾ . وبين الخلق والتكليف والإعادة بعد الموت.

لم يتركه لعقله واجتهاداته وأهوائه في التعرف على أسلوب العبادة، ومنهجه في الحياة الدنيا، بل أرسل إليه الرسل وأنزل الكتب لهدايته: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} ﴿الإسراء: 15﴾ .

وكانت السنة الإلهية أن يكون الرسل من الأقوام المرسل إليهم وبلسانهم. وذلك أداء للرسالة على أحسن وجه، وليتحقق الغرض من إرسالهم ببيان الهدايات بأيسر الطرق إلى الأقوام {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم} ﴿إبراهيم: 4﴾ .

لذلك كان الرسول المكلف بالتبليغ هو أوعى الناس لمهمته وأكثرهم علما وإحاطة برسالته، وبالتالي أقدرهم على بيان مراد الله سبحانه وتعالى من كتابه وآياته.

وهذه السنن والحكم الإلهية تتجلى في خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ورسالته. وقد نزلت الآيات الكريمة تبين هذه الجوانب بيانا كاملا:

فتارة يتكفل له ربه سبحانه وتعالى بحفظ القرآن: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} ﴿الحجر: 9﴾ .

وتارة أخرى يتعهد له ربه سبحانه وتعالى بجمع القرآن له وتوضيحه لاستيعابه: {إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه} ﴿القيامة: 17–19﴾ . وتارة يأمره ربه بتبليغ الآيات الكريمة للناس ومجاهدتهم بالقرآن: {فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا} ﴿الفرقان: 52﴾ .

لذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم عباد الله بكتاب الله، إذ إن تبليغ الرسالة على الوجه الأكمل مترتب على فهمه لمحتوى الرسالة جملة وتفصيلا، وهذا أمر تفرضه بدهيات الأمور {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم} ﴿النحل: 44﴾ .

ويأتي بعد فهم الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن الكريم فهم الصحابة رضوان الله عليهم وإن كان فهمهم له جملة "لظاهره على الإجمال ولأحكامه على التفصيل". وليس من الضروري إحاطتهم التامة بمعاني القرآن الكريم بحيث لا تغيب عنهم شاردة ولا واردة، نقول ذلك لما نقل إلينا عن الصحابة رضي الله عنهم، فعلى الرغم من رجوعهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم المرة تلو الأخرى لبيان ما أشكل عليهم فهمه، أو لإزالة غموض اعتور فهمهم للآيات البينات، تنقل إلينا كتب التفسير والروايات الصحيحة من السنة النبوية أن بعض الصحابة كان يستفسر عن بعض الآيات والمعاني إلى مرحلة متأخرة من حياتهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمثلا تنقل لنا الروايات أن عمر بن الخطاب سأل على المنبر في إحدى خطبه عن "الأب" في قوله تعالى: {وفاكهة وأبا} ﴿عبس: 31﴾ ، ثم عاد إلى القول: وما يضرك لو لم تعلم معناها، فإن في بحث هذه الأمور التي لا ينبني عليها حكم عملي تكلفا لا فائدة منه، لذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يكتفون فيما يتعلق بالجوانب النظرية من فروع العقائد، أو ما يتعلق بسير الأمم، أو تخليق السماوات والأرض ... فكانوا يكتفون بموطن العظة والعبرة ومجمل الاعتقاد فيها. بل جاء النهي القرآني الصريح عن الخوض في مثل هذه الأمور التي لا تدخل في إطار الأحكام العملية، يقول تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم، قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين} ﴿المائدة: 101، 102﴾ .

كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم النهي عن الاستفسارات التي لا يكون لها واقع عملي في حياة المسلمين. يقول عليه الصلاة والسلام: "إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته" 1. وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم" 2.

وفي الحديث الآخر الصحيح: "إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها

وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها" 3. والحكمة الإلهية في ذلك -والله أعلم- أن انصراف الأمة إلى الأمور النظرية والفرعيات التي لا ترتبط بالأحكام العملية يؤدي إلى الفرقة والنزاع وإلى الجدل العقيم والترف الثقافي، والأمة الإسلامية أمة جهاد ودعوة وعمل فلا يليق بها مثل هذه المشاغل، وبخاصة في الصدر الأول في مرحلة تأسيس الدولة الإسلامية.

بالإضافة إلى ما تقدم فإن إمكانات الصحابة رضوان الله عليهم الثقافية واللغوية لم تكن على مستوى واحد في الإدراك والفهم والاستنباط.

روى البخاري في صحيحه عن الشعبي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أخذ عدي عقالا أبيض وعقالا أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا، فلما أصبح قال: يا رسول الله جعلت تحت وسادتي فقال: "إن وسادك إذا لعريض أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك".

وكان منهم من لازم الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يفارقه في سفر ولا حضر، فاطلع على أسباب النزول وما كان يرافق أحوال الوحي مما لم يدركه الآخرون، كل ذلك أوجد ملكة ذهنية وعلمية لم تتوافر لغيرهم.

يقول مسروق: "جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإخاذ -الغدير- فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم"1.{أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها} ﴿الرعد: 17﴾ .

وفي الرواية التي أخرجها أبو الشيخ وابن مردويه والحاكم في صحيحه عن ابن عباس ما يدل أن بعض الصحابة كان يفهم بعض الآيات على غير وجهها الصحيح فيقع في محظور. يقول ابن عباس: إن الشراب كانوا يضربون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأيدي والنعال والعصي، حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر: لو فرضنا لهم حدا فتوفي ما كانوا يضربون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أبو بكر يجلدهم أربعين حتى توفي ثم كان عمر من بعدهم فجلدهم كذلك أربعين، حتى أتي برجل من المهاجرين الأولين قد شرب فأمر

به أن يجلد، فقال: لم تجلدني؟ بيني وبينك كتاب الله، قال: وفي أي كتاب الله تجد أن لا أجلدك؟ قال: فإن الله تعالى يقول في كتابه: {ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا} فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وأحسنوا. شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا وأحدا والخندق والمشاهد، فقال عمر: ألا تردون عليه؟ فقال ابن عباس: هؤلاء الآيات نزلت عذرا للماضين وحجة على الباقين، عذرا للماضين لأنهم لقوا الله قبل أن حرم عليهم الخمر، وحجة على الباقين لأن الله يقول: {إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام} حتى بلغ الآية الآخرى، فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، فإن الله نهى أن يشرب الخمر، فقال عمر: فماذا ترون؟ فقال علي بن أبي طالب: نرى أنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذي وإذا هذي افترى، وعلى المفتري ثمانون جلدة فأمر عمر فجلد ثمانين[2]..

وفي عهد التابعين اتسعت دائرة الأقوال في التفسير نظرا لحاجة الناس إلى تفسير القرآن الكريم، وذلك:

– لبعد العهد عن عصر النزول، ولانتشار الإسلام.

– ودخول أقوام فيه ممن لم تكن لديهم خلفية عن الثقافة الإسلامية، بل كان لبعضهم خلفيات ثقافية أخرى ممن اعتنقوا ديانات قبل الإسلام.

– كما ولد في الإسلام جيل لم يكن على علم تام بأساليب العربية وما رافق نزول القرآن إلا ما تلقوه عن الصحابة رضوان الله عليهم.

وكان إلى هذا العهد يتناقل التفسير بطريق الرواية، فالصحابة يروون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يروي بعضهم عن بعض، والتابعون يروون عن الصحابة كما يروي بعضهم عن بعض.

– وفي أواخر عهد بني أمية وأوائل العصر العباسي بدأ عصر التدوين، فجمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. فطاف الآفاق رجال كان شغلهم الشاغل جمع ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان على رأس هؤلاء:

ابن شهاب الزهري، المتوفى سنة 124هـ.

وشعبة بن الحجاج، المتوفى سنة 160هـ.

ووكيع بن الجراح، المتوفى سنة 197هـ.

وسفيان بن عيينة، المتوفى سنة 198هـ.

وروح بن عبادة البصري، المتوفى سنة 205هـ.

وعبد الرزاق بن همام الصنعاني، المتوفى سنة 211هـ.

وآدم بن إياس، المتوفى سنة 220هـ.

وأحمد بن حنبل، المتوفى سنة 241هـ.

وعبد بن حميد، المتوفى سنة 249هـ.

وابن ماجه، المتوفى سنة 273هـ.

وابن جرير الطبري، المتوفى سنة 310هـ. وغيرهم كثير ...

ولكن لم يصلنا شيء عن تفاسيرهم سوى تفسير مجاهد، وتفسير عبد الرزاق الصنعاني، وتفسير ابن ماجه، وتفسير ابن جرير الطبري.

وكان إلى هذا العهد يجمع التفسير على أنه باب من أبواب الحديث، يدون فيه ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كبار الصحابة مما يتعلق بتفسير آية أو آيات. ولم يبحث عن تفسير كل آية من آيات القرآن الكريم، وإنما يذكر فيه ما ثبت بطريق السند نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أحد الصحابة.

ولم نجد تفسيرا مستقلا للقرآن الكريم تتبع القرآن سورة سورة أو آية آية قبل بداية القرن الثالث الهجري، على الرغم من أن الروايات تذكر أن مجاهدا المتوفى سنة 104هـ سأل ابن عباس

ومعه ألواحه، فكتب تفسير القرآن كاملا، إلا أن التفسير المطبوع لا يختلف عن التفاسير المأثورة لآيات متفرقة. كما قيل إن سعيد بن جرير المتوفى سنة 94هـ كتب تفسيرا كاملا للقرآن الكريم. كما يقال إن عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة كتب تفسيرا للقرآن عن الحسن البصري المتوفى سنة 116هـ. إلا أننا لا نستطيع أن نجزم بصحة هذه الروايات لأن هذه التفاسير لم يصلنا منها إلا القليل، ووصلت أجزاء من بعضها.

ولعل أقدم تفسير كامل لآيات القرآن الكريم، وصلنا وتحت أيدينا، وهو تفسير شيخ المفسرين ابن جرير الطبري المتوفى سنة 310هـ.

ثم توالت المؤلفات في التفسير وتشعبت ألوانها حسب اتجاهات أصحابها والفنون التي أجادوا فيها، إلا أن الذي يهمنا هنا: هل كان بين تلك المؤلفات ما نطلق عليه اليوم اسم التفسير الموضوعي؟

وقيل البدء باستعراض تلك المؤلفات لنتعرف على المراد من مصطلح "التفسير الموضوعي".

التعاريف الضرورية لمادة التفسير الموضوعي

أولا/ تعريف التفسير

بادئ ذي بدء إنه من المفيد للطالب أن يتعرف على معاني بعض المفردات المتعلقة بمادة التفسير الموضوعي، وسنباشر بإذنه تعالى في عرض تلك المعاني عبر التعريفات الآتية.

أ- تعريف التفسير لغة:

(التفسير) مصدر على وزن (تفعيل)، فعله الماضي رباعي مضعف (فَسّر)، تقول: فسَّر يفسِّر تفسيرا.ومادة الكلمة – جذرها الثلاثي– (فَسْرٌ).

قال ابن فارس: (الفَسْرُ: كلمة تدل على بيان الشيء وإيضاحه، تقول: فَسَرْتُ الشيء، وفسَّرته). وقال الراغب الأصفهاني: (التفسير إظهار المعنى المعقول)، وقال ابن منظور: (الفَسْر: البيان، فَسَر الشيء وفسَّره، أي: أبانه، والفَسْر: كشف المغطى، والتفسير: البيان، وهو كشف المراد عن اللفظ المشكل).

وقال أبو البقاء الكفوي: (التفسير، الاستبانة والكشف، والعبارة عن الشيء بلفظ أيسر وأسهل من لفظ الأصل. وقال أهل البيان: التفسير: هو أن يكون في الكلام لبس وخفاء، فيؤتى بما يزيله ويفسِّره).

إن تصريفات واشتقاقات كلمة (الفسر) تقوم على: الكشف والبيان، والتوضيح والإظهار. ومعنى (تفسير الكلام): بيان معناه، وإظهاره وتوضيحه، وإزالة الإشكال واللبس عنه، والكشف عن المراد منه.

ب- التفسير اصطلاحا:

عند إضافة المصدر (تفسير) إلى القرآن تجعل لهذا المركب الإضافي (تفسير القرآن) معنى خاصا يتعلق بالقرآن الكريم.

قال الإمام الزركشي في تعريف علم التفسير: (التفسير: علم يفهم به كتاب الله، المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، واستخراج أحكامِه وحِكَمه).

وورد في (المعجم الوسيط) ما يلي: (التفسير: الشرح والبيان، وتفسير القرآن: يقصد منه: توضيح معاني القرآن، وما انطوت عليه آياته من عقائد وأسرار، وحِكَم وأحكام).

وجاء في التعريفات: (التفسير في الأصل هو الكشف والإظهار وفي الشرع توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة).

ولمصطلح التفسير عند محمد بن عاشور تعريف خاص به حيث قال: (اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد منها، باختصار أو توسع).

والخلاصة في تعريف علم التفسير هي: علم يتم به فهم القرآن، وبيان معانيه، والكشف عن أحكامه وإزالة الإشكال والغموض عن آياته.

فإذن لاحظنا وجود علاقة دلالية بين التعريف اللغوي والتعريف الاصطلاحي لكلمة التفسير، حيث أن مدار كل منهما كامن حول البيان والكشف. فعند استخدام الكلمة بعد الإضافة إلى كلمة القرآن، لم تفقد من دلالتها شيئا، بل أصبغتها على معاني آيات القرآن الكريم، بكشف ما يشكل وتوضيح ما يبهم.

ج – الموضوعية:

لو بحثنا في المعاجم حول كلمة (الموضوعية) لما وجدنا لها موضعا فيها بهذا اللفظ، بل الموضوعية (objectivity) فكرة فلسفية متعددة الدلالات، نشأت في السياق الفلسفي الغربي، ثم انتقلت إلى الفلسفة العربية وحقول المعرفة المختلفة في العصر الحديث، لم يعرف علماء القرآن قبل القرن العشرين اصطلاح الموضوعية كصفة أو طريقة خاصة في التفسير، ولكن هذا الاصطلاح لم يلبث أن دخل علوم القرآن والتفسير أسوة بكثير من الاصطلاحات التي دخلت. والواقع لفهم الموضوعية لابد من مقارنتها بالذاتية، وعلى هذا يمكن فهم موضوعية المنهج بأنها اعتماده على أسلوب التحري والبحث، باستخدام معلومات وبيانات دقيقة مما يستبعد احتمالات تأثير أية آراء شخصية أو أفكار مسبقة، ولكن إذا كان هذا هو مفهوم الموضوعية فلا يتصف التفسير الموضوعي به فحسب، بل يتصف به أيضا التفسير الترتيبي التحليلي، ويرى البعض صحة نسبة التفسير الموضوعي إلى هذا المعنى الفلسفي، وذلك باعتبار انطلاق المفسر الموضوعي من القضايا الواقعية والرجوع في فهمها إلى القرآن الكريم.

ورد في لسان العرب حول مادة (و.ض.ع) (الوضع ضد الرفع، والمواضع معروفة واحدها موضع، واسم المكان الموضع، ويقال وضع الشيء من يده إذا ألقاه). وفي القاموس المحيط لفيروز الآبادي (وضعه يضعه وضعا وموضعا وموضوعا حطه). وفي معجم مقاييس اللغة (الواو والضاد والعين أصل واحد يدل على الخفض للشيء وحطه ووضعته بالأرض وضعا).

ومما يستشف للقارئ أن الشيء الذي يحط أو يلقى في مكان ما يشغل حيزا ومساحة، وتتكون له حدود حسب ملامسته ومحاكاته لتلك المساحة وفق حجم ذلك الشيء، وعندما يقال: أخبرت فلانا بالموضوع أي أنه أخبره بالمسألة أو القضية، وسمي بالموضوع وكأنه له حدود معنوية تجمع ما هو متعلق به والإخبار عنه، وتمنع ما هو غير متعلق به فلا يذكر عند الحديث.

وكمثال على سبيل التوضيح لا الحصر، لو قلت تحدثت مع فلان حول موضوع السيارة، أي أنك تحدثت عن كل أو بعض ما هو متعلق بتلك السيارة، ولم تتحدث عن الدراسة أو الأكل أو أي شيء آخر، وكأن الكلام أخذ موضعا محددا في سياق الحوار.

وهذا هو الذي نجده في معاني مادة (وضع) في القرآن الكريم حيث أنه أفاد: إيجاب الشيء وإثباته في المكان، مثل قوله تعالى: ﴿ونضع موازين القسط﴾، فيكون وصف التفسير بـ(الموضوعي) ملحوظا فيه هذا المعنى، لأن المفسر يثبت كل آية في موضعها من المعنى الكلي للقضية التي يبحثها، وإذا كان (الموضوع) هنا بمعنى الشيء الذي له صفة معينة، وألزم مكانا معينا، لا يبرحه إلى غيره، وهذا المعنى أيضا ملحوظ تماما تقييد التفسير بـ(الموضوعي) لأنه يلزم المفسر الارتباط بمعنى معين، وصفة معينة، لا يتعداهما إلى غيرهما حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذي التزم به.

علماً أن كلمة الموضوع له مفهوم آخر في العلوم الأخرى، فمثلا في علم الحديث له تعريف في اصطلاح المحدثين: (الكلام المختلق المصنوع، والمكذوب، على رسول الله (ﷺ)، عمدا أو سهوا، وهو باطل لا أساس له). وعند المناطقة: (ما وضع ليحكم عليه بشيء) فالمبتدأ (موضوع) ليحكم عليه بالخبر، والخبر محمول لأنه حمل على شيء وهو المبتدأ، والفاعل (موضوع)، والفعل محمول.. وهكذا.

ثانيا/ التأويل

أ- تعريف التأويل لغة:

التأويل مصدر، على وزن (تفعيل)، وفعله الماضي رباعي مضعف: (أوّل)، تقول: أوّل يؤوِّل تأويلا. ومادة الكلمة هي : (الأَوْل.(

يقول ابن منظور: (الأول الرجوع، آل الشيء يؤول أولا ومآلا رجع)، وقال ابن فارس: (أوّل: أصلان هما ابتداء الأمر، وانتهاؤه. من استعماله في الابتداء: قولك: الأول، وهو مبتدأ الشيء، ومن استعماله في الانتهاء قولهم: الأيّل، وهو الذكر من الوعول، وسمي أيلا لأنه يؤول إلى الجبل وينتهي إليه، ليتحصن فيه. وقولهم: آل، بمعنى رجع، وآل الرجل: أهل بيته، سموا بذلك لأن مآلهم ومرجعهم وانتهاءهم إليه. والأول بمعنى الانتهاء والمرجع. وتأويل الكلام: عاقبته وما يؤول إليه.(

وإلى نحو قريب ذهب الفيروزآبادي في (القاموس المحيط) قائلا: (وأوّل الكلام وتأوله ودبره وقدره وفسره) .

وقال الراغب الأصفهاني: (الأول: الرجوع إلى الأصل)، والتأويل هو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه، علما كان أو فعلا. ومن رد الشيء إلى غايته في العلم قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولوه آمنا به.[

ب- التأويل اصطلاحا:

وكما كان الشأن مع التفسير الاصطلاحي لكلمة التفسير من حيث اشتراكه مع التعريف اللغوي لها، فإن التعريف الاصطلاحي لكلمة التأويل قريب من التعريف اللغوي لها، حيث وردت تعريفات في هذا الصدد منها:

تأويل القرآن: علم يتم به حسن فهم القرآن، وإزالة اللبس والإشكال عن بعض آياته، بردها إلى الغاية المرادة منها، وحملها على الآيات الأخرى الواضحة ... واستنباط لطائف الآيات ودلالاتها وحقائقها.

وقال آخرون: التأويل في اللغة الترجيع وفي الشرع صرف الآية عن معناها الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا بالكتاب والسنة مثل قوله تعالى ﴿يخرج الحي من الميت﴾ إن أراد إخراج الطير من البيضة كان تفسيرا وإن أراد به إخراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تأويلا.

ويقول السيوطي: التَّأوِيل صرف الكلام إلى معنى محتمل موافق لما قبلها وما بعدها غير مخالف للكتاب والسنة على طريق الاستنباط.

أقوال في الفرق بين بين التفسير والتأويل:

يقول الجرجاني مستخدما البيان بدلا من التفسير: والفرق بين التأويل والبيان أن التأويل ما يذكر في كلام لا يفهم منه معنى محصل في أول وهلة والبيان ما يذكر فيما يفهم ذلك لنوع خفاء بالنسبة إلى البعض .

وقد جمع السيوطي أقوالا في الفرق بين التفسير والتأويل قائلا :

قيل التفسير كشف ظاهر القرآن والتأويل كشف باطنه، وقيل التفسير ما يتعلق بالرواية والتأويل ما يتعلق بالدراية، وقيل التفسير ما يمكن إدراك البشر إلى صفاته ومعانيه، والتأويل ما يمتنع إدراكه ولا يعلم تأويله إلا الله، وقيل التفسير ما لم يختلف فيه والتأويل ما اختلف فيه، وقيل التفسير بيان الحقيقة والتأويل بيان المقصود، وقيل التفسير ما لم يرد فيه من السلف إلا وجه واحد والتأويل ما ورد فيه وجوه كثيرة، وقيل التفسير للمحكمات والتأويل للمتشابهات.

وللراغب الأصفهاني قول جامع لطيف في الفرق بين التفسير والتأويل، نوجزه فيما يلي: التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعماله في معاني الألفاظ والمفردات، وفي تفسير الكتب الإلهية وغيرها، أما التأويل فهو أخص من التفسير، وأكثر استعماله في بيان معاني الجمل والتراكيب.

التفسير والتأويل مرحلتان متتابعتان:

خرجنا مما سبق في معنى التفسير والتأويل بنتيجة قاطعة أن تفسير آيات القرآن هو فهمها وشرحها، وبيان معانيها، وتأويل آيات القرآن هو فهمها واستنباط لطائفها ودلالاتها وإشاراتها. ويجب أن نستحضر هذا المعنى لكل منهما، ونحن نحاول التفريق بينهما. والراجح فيه أن حسن فهم القرآن وفقه معانيه لابد أن يكون على مرحلتين متتابعتين:

المرحلة الأول: تفسير القرآن، المرحلة الثانية: تأويل القرآن .

في مرحلة التفسير يقوم المفسر بتفسير ألفاظ وجمل القرآن، ويعتمد في تفسيره على الروايات والأقوال المأثورة، ويورد ما في معنى الآية من آيات أخرى، وأحاديث صحيحة، وأقوال للصحابة والتابعين، وأسباب نزول، وتوجيه قراءات، وإعراب، وشواهد شعرية .

وهو في عمله هذا يفسر ظاهر الآية، ويورد المعنى القريب المتبادر منها، ويعتمد على العلم والنقل في ذلك، وهو لذلك يفسر الآية من باب الجزم والقطع. وعمله في هذه المرحلة يحقق معنى التفسير الذي سبق أن أوردناه، لأنه يقدم المعنى الظاهري للآية .

فإذا أراد أن ينتقل إلى المرحلة الثانية، ويقول بتأويل القرآن، فإنه ينظر في القرآن على ضوء معلوماته التفسيرية السابقة. عندما يؤول القرآن، فإنه يمعن الظر في الجمل والتراكيب القرآنية، ويعتمد في هذا النظر على تدبره وإعمال عقله. وتنفذ نظراته إلى باطن الآية، ويلتفت إلى لطائفها وإشاراتها وإيحاءاتها، ويستخرج حقائقها ودلالاتها، ويلحظ المعنى البعيد غير المتبادر للذهن، ويزيل ما حول الاية من لبس أو اشتباه أو إشكال .

وعمل المؤول في هذه المرحلة عمل ذاتي، وتأويلاته التي يقدمها هي ثمرة تدبره للقرآن وهو في هذه المرحلة يحقق معنى التأويل الذي سبق أن أوردناه، لأنه عندما يقدم تأويلاته، فلابد أن يردها إلى معلوماته التفسيرية، وأن يرجع بها إليها، فإن تعارضت تأويلاته مع معلوماته التفسيرية ألغاها، لأنها تأويلات خاطئة .

إن المؤول يصحح لنفسه، بعدما يؤول، وينظر في تأويله على ضوء تفسيره، ويعيد تأويله إلى تفسيره، ولهذا اعتبرنا التأويل مرحلة ثانية، تأتي بعد التفسير وتبنى عليه، ولا تعتمد إلا إذا ردت إليه باعتباره الأصل والمرجع .

الدليل على القول بالمرحلية بينهما:

الدليل على ذلك تفاوت الصحابة الكرم رضوان الله عليهم في فهم معاني القرآن، فمنهم من كان يكتفي بالوقوف مع ظاهر الآيات، ويقدم معناها القريب المتبادر للذهن، ومنهم من كان يتدبر فيها، ويقف على إشاراتها، ويقدم المعنى البعيد اللطيف غير المتبادر للذهن .

كان الصحابة مفسرين للقران مع تفاوت بينهم في العلم، ولكن لم يكونوا جميعا مؤلين له، وفي مقدمة الصحابة المؤولين للقرآن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما وقصته مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في (تأويل) سورة النصر، بعد أن عمر جماعة ممن كانوا معه قائلا: ما تقولون في قول الله تعالى ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره، إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئا. فقال لابن عباس: أكذاك تقول؟ فقال: لا، قال: فما تقول؟ قال: هو أجل رسول الله() ، فقال ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ وذلك علامة أجلك: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾. قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول.

لقد قام الصحابة بتفسير سورة النصر تفسيرا ظاهريا، حيث ذكروا معناها المتبادر للذهن، وتفسيرهم صحيح تماما، ولكن ابن عباس لم يقف عند هذا المعنى الظاهري، وإنما انتقل منه إلى المرحلة الثانية، وهي تأويل السورة.

تشير سورة النصر إلى ارتباط حياة الرسول () على الأرض بهذا الدين، فهو رسول الله() ، ومهمته تبليغ الرسالة، وبما أن هذا الدين لم يتم انتصاره وانتشاره في بقاعه الأولى في جزيرة العرب، فما زال في عمره صلى الله عليه وسلم بقية!

أما وقد حقق الله لدينه النصر والفتح، وانتشر في بقاع جزيرة العرب، فقد انتهت مهمته التبليغية صلى الله عليه وسلم، وبهذا ينتهي عمره في هذه الدنيا. هذه النظرة التأويلية الفاحصة، غابت عن باقي الصحابة، بينما أحسن التقاطها ابن عباس وأميره عمر بن الخطاب رضي الله عنهم.

تعريف التفسير الموضوعي اصطلاحا، ومركبا:

وبناء على ما سبق، فإن التفسير الموضوعي يركز على الموضوعات المذكورة في القرآن الكريم بشكل عام، سواء كان على صعيد الكلمة التي تدل على معنى أو معان معدودة، أو على صعيد المسألة أو القضية التي تسمى بالموضوع أيضا، مثل موضوع الصلاة أو موضوع الصدق أو موضوع العفة، وغير ذلك، أو على صعيد السورة الواحدة مما تتناوله من موضوعات، فمثلا عند دراسة سورة النور نجد أنها تناولت بعضا من الموضوعات كموضوع الزنى واللعان، وموضوع الاستئذان، وموضوع غض البصر، وهكذا.

إذا تبين لنا ذلك فإننا نجد العلماء المحدثين قد فسروا التفسير الموضوعي حسب ما أشرنا إليه، ولكن البعض منهم عرفه باعتبار المنهج، والبعض الآخر قد عرفه باعتبار المفهوم، و في ما يلي بعض التعريفات الواردة حسب المنهج لديهم:

- (أن تجمع الآيات التي في الموضوع الواحد، ولو كانت في سور شتى، وتؤخذ منها العبرة).
- أن تختار موضوعا من المواضيع التي يتناولها القرآن الكريم فتجمع الآيات والسور التي وردت بشأنه على نحو يضم أجزاءها ويجمع متفرقها، ويربط بعضها ببعض، فتكتمل بذلك صورة الموضوع، إذ القرآن يفسر بعضه بعضا).
- (جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن المتعلقة بالموضوع الواحد لفظا أو حكما، وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية).

ويرى بعض الدارسين أن معظم هذه التعريفات قد وقعت في خلط بين تحديد ماهية التفسير الموضوعي، وبين شرح منهجه وتبيان طريقته، ووجدوا أنها قد مالت إلى تحديد المنهج والطريقة دون توضيح الماهية المميزة للتفسير الموضوعي دون غيره من أنواع التفسير.

ووردت تعريفات أخرى حسب المفهوم منها:

- (المنهج الذي يتخذه المفسر سبيلا للكشف عن مراد الله من خلال المواضيع التي يطرحها والقضايا التي يعالجها، توضيحا لهداية القرآن، وتجلية لوجوه إعجازه).
- (العلم الذي يتخذ من الموضوعات الظاهرة أساسا في الكشف عن منهج القرآن وأسلوبه في معالجتها لها، متخذا من القواعد والشروط المرعية في التفسير سلما لهدي الكتاب وجلال شأنه).

وقد أخذ على التعريف الأخير أن الموضوعات الظاهرة يقابل الباطنة أو غير المدركة، وهذا إن صح فهو غريب ومشكل، إذ ما الفرق بين نوعي الموضوعات هذين ولم دخل الظاهر منها في التفسير الموضوعي دون الباطن!

ولكن التدقيق في عبارة التعريفين يظهر أن كل واحد من هذين التعريفين يعبر عن رؤية للتفسير الموضوعي تختلف عن الأخرى، فالأول منهما يعبر عن موقف من يرى أن مبدأ اختيار الموضوع في التفسير الموضوعي هو الرجوع إلى القرآن نفسه والنظر في القضايا التي عالجها والكشف عن مراد الله فيها.

أما التعريف الثاني فهو قول الذين يرون مبدأ اختيار الموضوع هو الواقع وشؤونه، ثم يلحقون به النظر في القرآن لاستنباط هدايته وإرشاده بشأنه، فالمقصود من الموضوعات الظاهرة هو القضايا الواقعية التي تقع ابتداء خارج النص القرآني ثم ينظر فيها بشأنها.

ومنهم من عرفه بأنه (علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر)، وهذا التعريف أيضا فيه شيء من الغرابة والغموض، فما المقاصد القرآنية؟ وهل لها ماصدق معروف في علوم القرآن سابق على النظر الموضوعي للقرآن حتى نجعلها معيارا ومستندا يقوم عليه فهمنا للقضايا المفسرة موضوعيا؟

ومن التعريفات ما ركزت على صفة الاستحداث مفاده (منهج مستحدث في تفسير القرآن يوظف لسبر أغوار الموضوع من خلال القرآن كله أو سورة منه للخروج بتصور حوله أو نظرية فيه)، ويؤخذ عليه أن كلمة (المستحدث) قيد غير جوهري ولا لازم.

ومن الباحثين من جعل التفسير الموضوعي للقرآن مندرجا تحت عنوان (الوحدة الموضوعية في القرآن) ناصا أنه (البحث عن القضايا التي عرض لها القرآن في سوره المختلفة، ليظهر ما فيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع الذي نبحثه، لنحقق الهدف وهو الوحدة الموضوعية للقرآن). ويلحظ في هذا التعريف أنه قد جعل غاية التفسير الموضوعي هي إثبات (الوحدة الموضوعية)، وعلى الرغم من أن التفسير الموضوعي يقوم على القول بوحدة القرآن في دلالته على مراد الله عز وجل، كما أن حصيلة هذا التفسير تثبت هذه الوحدة في نهاية المطاف، إلا أن التفسير الموضوعي ليس هو عين (الوحدة الموضوعية للقرآن) ولا يصح اطلاقها عليه إلا من باب المجاز المرسل غائي العلاقة.

ولعل أقرب تعريف للتفسير الموضوعي هو :

(الكشف الكلي عن مراد الله عز وجل في قضية قرآنية حسب الطاقة البشرية

يقوم مفهوم التفسير الموضوعي للقرآن إذن على عنصرين رئيسيين:

الأول: (الكلية) فالذي يميز التفسير الموضوعي هو ذلك النظر الكلي المتجاوز لجزئيات موضوعه ومفرداته إلى الرؤية الكلية المتحصلة من هذه الجزئيات.

الثاني: (القضية) أو الموضوع، إن الذي يعني المفسر الموضوعي في المحل الأول هو المعاني والأفكار المنبثقة عن الآيات القرآنية، أما الألفاظ أو التراكيب اللفظية فلا تعنيه إلا بما هي دالة ومرشدة إلى ذلك الفهم الكلي، كما لا يدخل في مجال التفسير الموضوعي الدراسات التي تسعى للخروج بكليات عن منهج القرآن في أنواع خطابه المختلفة، كخطاب الأمر أو والنهي أو التمثيل أو القصة...، إذ لا يتوجه النظر الكلي في هذه الدراسات إلى الأفكار أو القضايا التي يثيرها النص نفسه، بل يتوجه منهجه في التعبير عن هذه القضايا وصياغتها، وهذا أمر آخر يدخل مجال التفسير الموضوعي.

وأما قيد (الطاقة البشرية) فلازم للتأكيد على أن التفسير الموضوعي للقرآن – في نهاية الأمر– ليس إلا اجتهادا بشريا قد يخطئ وقد يصيب، فلا يحق لأحد أن يدعي أن ما فهمه من كلام الله هو حقا مراده ومقصوده من كلامه، بل هو ما مكّنه اجتهاده من فهمه والإحاطة به، وهذا الفهم قد يطابق مراد الله وقد يخالفه.

نشأة التفسير الموضوعي:

لم يظهر هذا المصطلح "التفسير الموضوعي" إلا في القرن الرابع عشر الهجري، عندما قررت هذه المادة ضمن مواد قسم التفسير بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر. إلا أن لبنات هذا اللون من التفسير وعناصره الأولى كانت موجودة منذ عصر التنزيل في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإن تتبع الآيات التي تناولت قضية ما والجمع بين دلالاتها وتفسير بعضها لبعض، مما أطلق عليه العلماء فيما بعد بتفسير القرآن بالقرآن، كان معروفا في الصدر الأول، وقد لجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه عندما سئل عن تفسير بعض الآيات الكريمة:

– روى الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم} ﴿الأنعام: 82﴾ شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: "إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: {إن الشرك لظلم عظيم} ﴿لقمان: 13﴾ ، إنما هو الشرك".

– روى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر مفاتح الغيب في قوله تعالى: {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو} ﴿الأنعام: 59﴾ فقال: "مفاتح الغيب خمس: {إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير} ﴿لقمان: 34﴾ ".

– ومن هذا القبيل ما كان يلجأ إليه الصحابة رضوان الله عليهم من الجمع بين الآيات القرآنية التي يظن بها بعضهم التعارض، كما روى البخاري قال: وقال المنهال عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما إني لأجد في القرآن أشياء تختلف علي، قال: {فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} ، {وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون} ، {ولا يكتمون الله حديثا} ، {والله ربنا ما كنا مشركين} فقد كتموا في هذه الآية، وقال تعالى: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها، رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها} فذكر خلق السماء قبل الأرض، ثم قال تعالى: {قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين}

إلى قوله: {طائعين} فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء. وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحى الأرض ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله تعالى: {دحاها}.

وقد وضع العلماء بعد ذلك قاعدة في أصول التفسير بضرورة العودة إلى القرآن الكريم نفسه لمعرفة تفسير آية ما، فما أجمل في مكان فصل في مكان آخر، وما أطلق في سورة مقيد في سورة أخرى. يقول ابن تيمية: "إن أصح الطرق في ذلك –أي في تفسير القرآن– أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر". ومن أبرز تلك الأمثلة قوله تعالى في سورة النحل: {وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل} ﴿إبراهيم: 118﴾ ، فقد أفادت الآية الكريمة أن ما حرم على اليهود قد قصه الله سبحانه وتعالى على نبيه، وبالرجوع إلى الآية التي ورد فيها ذكر المحرمات عليهم، نجد أن آية الأنعام قد فصلت هذا الإجمال وأزالت ذاك الإبهام في قوله تعالى: {وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون} ﴿الأنعام: 146﴾ .

وكذلك ما يتعلق بالمحرمات من بهيمة الأنعام على هذه الأمة نجد في ذلك عدة آيات: كقوله تعالى: {أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم} ﴿المائدة: 1﴾ .

وقد جاء تفصيل هذه المحرمات في عدة آيات كقوله تعالى:{قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به} ﴿الأنعام: 145﴾ .{يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون، إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله} ﴿البقرة: 172، 173﴾ .

وقوله تعالى: {حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق} ﴿المائدة: 3﴾ .

وقد جمع الفقهاء هذه الآيات ذات الصلة بموضوع واحد في كتبهم الفقهية فجمعوا ما يتعلق بالوضوء والتيمم تحت كتاب الطهارة واستنبطوا منها الأحكام الخاصة بها، كما جمعوا ما ورد في الصلاة وقيامها وركوعها والقراءة فيها تحت كتاب الصلاة، وما يتعلق بالصدقات وجوبا ومصارف وأنواع المال التي تخرج الصدقة منها تحت كتاب الزكاة، وهكذا في سائر أبواب الفقه من العبادات والمعاملات والفرائض والسير. وكل ذلك لون من ألوان التفسير الموضوعي في خطواته الأولى.

وقد أخذت هذه الدراسات الموضوعية اتجاها آخر في نفس الوقت وهو الاتجاه اللغوي وذلك بتتبع اللفظة القرآنية ومحاولة معرفة دلالاتها المختلفة.

فقد ألف مقاتل بن سليمان البلخي المتوفى سنة 150هـ كتابا سماه "الأشباه والنظائر في القرآن الكريم"، وذكر فيه الكلمات التي اتحدت في اللفظ واختلفت دلالالتها حسب السياق في الآيات الكريمة.

وألف يحيى بن سلام المتوفى سنة 200هـ كتابه "التصاريف"، تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه على طريقة كتاب الأشباه والنظائر.

وألف الراغب الأصفهاني المتوفى سنة 502هـ كتابه "المفردات في القرآن" حيث تتبع مادة الكلمة القرآنية وبين دلالاتها في مختلف الآيات.

ثم ألف ابن الجوزي المتوفى سنة 597هـ كتابه "نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر".

وعلى هذه الشاكلة كتاب الدامغاني المتوفى سنة 478هـ بعنوان "إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم".

وكتاب الفيروزآبادي المتوفى سنة 817هـ بعنوان "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز".

وكتاب ابن العماد المتوفى سنة 887هـ بعنوان "كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر".

وكان الغالب على هذه المؤلفات الجانب للكلمات الغريبة التي تتعدد دلالاتها حسب الاستعمال. وإلى جانب هذا اللون من التفسير فقد برزت دراسات تفسيرية لم تقتصر على الجوانب اللغوية بل جمعت بين الآيات التي يربطها رابط واحد أو يمكن أن تدخل تحت عنوان معين:

فقد ألف الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، المتوفى سنة 224هـ كتابه في الناسخ والمنسوخ.

وألف الإمام علي بن المديني "شيخ البخاري" والمتوفى سنة 234هـ كتابه في أسباب النزول.

وألف الإمام ابن قتيبة المتوفى سنة 276هـ كتابه "تأويل مشكل القرآن".

وألف أبو بكر الجصاص الحنفي المتوفى سنة 370هـ كتابه "أحكام القرآن".

وألف ابن العربي المالكي المتوفى سنة 543هـ كتابه "أحكام القرآن" أيضا.

وألف إلكيا الهراسي الشافعي المتوفي سنة 504 هـ كتابه "أحكام القرآن" أيضا.

وظهرت مؤلفات أخرى جميع أصحابها ما يشمله عنوان الكتاب: مثل "أمثال القرآن" للماوردي المتوفى سنة 450هـ.

وكتاب "مجاز القرآن" للعز بن عبد السلام المتوفى سنة 660هـ.

وكتاب "أقسام القرآن" و"أمثال القرآن" لابن القيم المتوفى سنة 751هـ.

ولا زال هذا الخط من التأليف في التفسير الموضوعي مستمرا إلى يومنا هذا، وقد توجهت أنظار الباحثين إلى هدايات القرآن الكريم حول معطيات الحضارات المعاصرة وظهور المذاهب والاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية، والعلوم الكونية والطبيعية.

فنجد مؤلفات كثيرة تحت عناوين شتى مثل:

- الإنسان في القرآن.

- المرأة في القرآن.

- الأخلاق في القرآن.

- اليهود في القرآن.

- سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن.

- الصبر في القرآن.

- الرحمة في القرآن.

ومثل هذه الموضوعات لا تكاد تتناهى، فكلما جد جديد في العلوم المعاصرة، التفت علماء المسلمين إلى القرآن الكريم ليسترشدوا بهداياته وينظروا في توجيهات الآيات الكريمة في مثل هذه المجالات الجديدة.

ومن الجدير بالذكر في هذا المجال أن أحد المستشرقين الإفرنسيين هو "جول لابوم" وضع كتابا بعنوان "تفصيل آيات القرآن الكريم" وضع لكتابه ثمانية عشر بابا، ثم حاول توزيع آيات القرآن الكريم على هذه الأبواب، وجعل تحت كل باب فروعا وقد بلغت عدة هذه الفروع حوالي/ 350 فرعا، وجمع تحت كل فرع الآيات التي تتعلق به.

ألوان التفسير الموضوعي وانواعه:

من خلال الاستعراض التاريخي لنشوء علم التفسير والمؤلفات فيه نستطيع أن نلحظ ثلاثة أنواع من ألوان التفسير الموضوعي.

اللون الأول: أن يتتبع الباحث لفظة من كلمات القرآن الكريم ثم يجمع الآيات التي ترد فيها اللفظة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية، وبعد جمع الآيات والإحاطة بتفسيرها يحاول استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها. وكثير من الكلمات القرآنية المتكررة أصبحت مصطلحات قرآنية.

فكلمات: الأمة، الصدقة، الجهاد، الكتاب، الذين في قلوبهم مرض، المنافقون، الزكاة، أهل الكتاب، الربا، نجدها تأخذ وجوها في الاستعمال والدلالة. فالمتتبع لمثل هذا يخرج بلون من التفسير لأساليب القرآن الكريم في استخدام مادة الكلمة ودلالاتها.

وقد سبقت الإشارة إلى أن كتب غريب القرآن، وكتب الأشباه والنظائر قد تضمنت هذا اللون من التفسير، وهي العمدة في مثل هذه الأبحاث. إلا أن المؤلفات القديمة من هذا اللون بقيت في دائرة دلالة الكلمة في موضعها. ولم يحاول مؤلفوها أن يربطوا بينها في مختلف السور، فبقي تفسيرهم للكلمة في دائرة الدلالة اللفظية. أما المعاصرون الذين كتبوا في هذا اللون فقد تتبعوا الكلمة وحاولوا الربط بين دلالاتها في مختلف المواضع فكان أشبه ما يكون باللون الثاني من التفسير الموضوعي.

وفيما يلي ننقل نموذجا على هذا اللون من التفسير الموضوعي من كتاب الدامغاني: نموذج من كتاب: "إصلاح الوجوه والنظائر"، للدامغاني: قال الدامغاني تحت مادة "خ ي ر"[1]: "خ ي ر" على ثمانية أوجه: المال، الإيمان، الإسلام، أفضل، العافية، الأجر، الطعام، الظفر والغنيمة. فوجه منها

اولا: الخير بمعنى المال، قوله سبحانه في سورة البقرة: {إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا} يعني مالا. كقوله تعالى فيها: {قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين} وكقوله تعالى في سورة البقرة: {وما تنفقوا من خير فلأنفسكم} أي لا تنفقوا مالا وقوله تعالى فيها: {وما تنفقوا

من خير يوف إليكم} يعني من مال، وقوله تعالى في سورة "ص": {إني أحببت حب الخير} يعني حب المال، وكقوله تعالى في سورة النور: {إن علمتم فيهم خيرا} يعني مالا.

الثاني: الخير يعني الإيمان. قوله تعالى في سورة الأنفال: {ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم} يعني لو علم الله فيهم إيمانا، كقوله تعالى فيها: {يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا} يعني إيمانا، كقوله تعالى في سورة هود: {ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا} يعني إيمانا.

الثالث: الخير يعني الإسلام. قوله تعالى في سورة البقرة: {ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم} يعني الإسلام، نظيرها في سورة "ق": {مناع للخير} يعني الإسلام نزلت في الوليد بن المغيرة منع ابن أخيه أن يسلم، نظيرها في سورة "ن".

الرابع: خير يعني أفضل. قوله تعالى في سورة المؤمنون: {وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين} يعني أفضل الراحمين، كقوله تعالى في سورة يونس: {وهو خير الحاكمين} أى أفضل الحاكمين، ونحوه قوله تعالى في سورة الزخرف: {أم أنا خير من هذا الذي هو مهين} يقول أفضل من هذا.

الخامس: الخير يعني العافية. قوله تعالى في سورة الأنعام: {وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير} يعني بعافية.

السادس: الخير يعني الطعام. قوله تعالى في سورة القصص: {قال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير} يعني الطعام.

السابع: الخير يعني به الظفر والغنيمة والطعن في القتال قوله تعالى في سورة الأحزاب: {ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا} يعني ظفرا وغنيمة".

ونلاحظ أن المؤلف لم يربط بين أصل الكلمة واستعمالاتها وسياق الآيات التي وردت فيها الكلمة: ليبني عليها هداية قرآنية أو ليستنبط من دلالات اللفظة وسياق استعمالاتها توجيها قرآنيا معينا. وإنما بقيت الكلمة حيث وردت في نطاق الدلالة اللفظية المفردة.

نموذج من كتاب "المفردات في غريب القرآن"، للراغب الأصفهاني، المتوفى سنة 502هـ في كلمة "أمة":

الأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما: إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أو اختيارا. وجمعها أمم.

وقوله تعالى: {وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم} أي كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع. فهي بين ناسخة كالعنكبوت، وبانية كالسرقة[1]، ومدخرة كالنمل، ومعتمدة على قوت وقته كالعصفور والحمام إلى غير ذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع. وقوله تعالى: {كان الناس أمة واحدة} أي صنفا واحدا وعلى طريقة واحدة في الضلال والكفر. وقوله تعالى: {ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة} أي في الإيمان. وقوله تعالى: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير} أي جماعة يتخيرون العلم والعمل الصالح يكونون أسوة لغيرهم.

وقوله تعالى: {إنا وجدنا آباءنا على أمة} أي على دين مجتمع. قال الشاعر: وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع. وقوله تعالى: {وادكر بعد أمة} أي حين. وقرئ بعد أمه[2]: أي نسيان. وحقيقة ذلك بعد انقضاء أهل عصر أو أهل دين. وقوله تعالى: {إن إبراهيم كان أمة قانتا لله} أي قائما مقام جماعة في عبادة الله، نحو قولهم: فلان في نفسه قبيلة. وروي أنه يحشر زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحدة[3].وقوله تعالى: {ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة} أي جماعة. وجعلها الزجاج ههنا للاستقامة، وقال تقديره ذو طريقة واحدة، فترك الإضمار[4]. ثم انتقل إلى لفظة "أمي" ودلالات الكلمة، ثم إلى كلمة "الإمام" ودلالاتها، ثم إلى كلمة "الأم" بمعنى القصد، وختم المادة بالحديث عن حرف "أما".

وفي كل ذلك لم يتعرض لسياق الآيات التي استخدمت فيها كلمة "أمة" وإنما تعرض لها في مواطنها ولم يفصل القول في عناصر تكوين دلالات هذه اللفظة ولا مقومات استمرارها ودورها.

وقارن ذلك بما كتبه الدكتور أحمد حسن فرحات حول مصطلح الأمة ودلالتها اللغوية والفكرية والشرعية.

اللون الثاني: تحديد موضوع ما يلحظ الباحث تعرض القرآن الكريم له بأساليب متنوعة في العرض والتحليل والمناقشة والتعليق.

فيتتبع الموضوع من خلال سور القرآن الكريم، ويستخرج الآيات التي تناولت الموضوع، وبعد جمعها والإحاطة بتفسيرها يحاول الباحث استنباط عناصر الموضوع من خلال الآيات الكريمة، فينسق بين عناصره، ويقدم له بمقدمة حول أسلوب القرآن الكريم في عرض أفكار الموضوع، ويحاول أن يقسمه إلى أبواب وفصول ومباحث، ويستدل بالآيات القرآنية على كل ما يذهب إليه ويتحدث عنه مع ربط ذلك كله بواقع الناس ومشاكلهم ومحاولة حلها وإلقاء أضواء قرآنية عليها.

ويتجنب خلال بحثه التعرض للأموال الجزئية في تفسير الآيات فلا يذكر القراءات، ووجوه الإعراب والنكات البلاغية إلا بمقدار ما تلقي أضواء على أفكار الموضوع الأساسية، ويعرض ما يتحدث عنه بأسلوب جذاب لتوضيح مرامي الآيات ومقاصدها والحكمة الإلهية في عرض أفكار الموضوع بأساليب معينة واختيار ألفاظ محددة لها.

وهذا اللون من التفسير الموضوعي هو المشهور في عرف أهل الاختصاص، وإذا أطلق اسم "التفسير الموضوعي" فلا يكاد ينصرف الذهن إلا إليه. ولقد كثرت المؤلفات قديما وحديثا في هذا اللون من التفسير الموضوعي فما كتب: إعجاز القرآن. والناسخ والمنسوخ في القرآن.

وأحكام القرآن. وأمثال القرآن. ومجاز القرآن ... قديما إلا أمثلة ناطقة على أهمية هذا اللون من التفسير عند السلف الصالح من علماء هذه الأمة. وكذلك الموضوعات المختلفة المعاصرة: المتعلقة بمجالات المعرفة المختلفة حيث ربطها الباحثون بالقرآن الكريم ونظروا بمنظاره إلى هذه المجالات وكيفية البحث عنها، سواء كانت هذه المجالات مما يتعلق بالكون المحيط بالإنسان من أرض وسماوات وكواكب ونجوم وبحار ومحيطات وجبال وأنهار ونبات وحيوان، أو كانت مما يتعلق بالإنسان خلقه وتكوينه وعواطفه وغرائزه ومشاعره ونفسه وعقله، وأخلاقه

وسموه وتسقله، أو بالحياة الاجتماعية التي يحياها الإنسان في مجتمعه بدءا بالعلاقات الأسرية والاجتماعية في القوم والعشيرة، والعلاقات الدولية والأمور الاقتصادية والسياسية، وأنظمة السلم والحرب والدعوة إلى الله، وأخذ العبر والعظات من سير الأقوام والأمم الماضية. وما يتعلق كذلك بأمور الغيب من البعث بعد الموت والحشر والحساب والجنة والنار، وصنوف النعيم في دار السعادة للمتقين، وصنوف الشفاء للتعساء في دار الجحيم. ولا تكاد تنتهي مثل هذه الموضوعات، بل كلما جدت علوم وصنوف من المعرفة لدى الإنسان يجد الباحث في القرآن الكريم ما يشبع فكرة اقتناعا، وقلبه طمأنينة من عرض القرآن الكريم لأساسيات هذا اللون من المعرفة بوضع الأسس العامة والتوجيهات الأساسية في هذا الشأن.

اللون الثالث من التفسير الموضوعي: وهذا اللون شبيه باللون الثاني إلا أن دائرة هذا اللون أضيق من دائرة سابقه. حيث يبحث في هذا اللون عن الهدف الأساسي في السورة الواحدة، ويكون هنا الهدف هو محور التفسير الموضوعي في السورة.

وطريقة البحث في هذا اللون هو: أن يستوعب الباحث هدف السورة الأساسي، أو أهدافها الرئيسية، ثم يبحث عن سبب النزول للسورة أو الآيات التي عرضت الموضوع الأساسي للسورة، ثم ينظر إلى ترتيب نزول السورة من بين السور المكية أو المدينة، ثم يدرس الأساليب القرآنية في عرض الموضوع والمناسبات بين مقاطع الآيات في السورة. وسيجد الباحث أن لكل سورة شخصيتها المستقلة وأهدافها الأساسية. فمن المعلوم أن السور المكية قد عرضت أسس العقيدة الإسلامية الثلاثة بشكل مفصل: الألوهية، الرسالة، البعث بعد الموت، لذا يمكن أن يتناول الباحث في كل سورة مكية أحد الجوانب الثلاثة من العقيدة، كما اشتمل كثير منها على الحث على أمهات الأخلاق والتنفير من مرذولها.

ولم يظفر هذا اللون من التفسير الموضوعي بعناية المفسرين القدماء بل جاء في ثنايا تفاسيرهم الإشارة إلى بعض أهداف السور وخاصة القصيرة منها، وكذلك التوخي لوجه المناسبة بين مقاطع بعض السور، كما فعل الفخر الرازي في تفسيره الكبير، وكذا فعل البقاعي في نظم الدرر، وعبد الحميد الفارهي في كتابه نظام القرآن.

أما في العصر الحديث فقد كان سيد قطب مولعا بعرض أهداف وأساسيات كل سورة، قبل البدء في تفسيرها، وبيان شخصية كل سورة وملامحها المتميزة عن بقية السور. والأساليب المتبعة في عرض أفكارها. فيعتبر كتابه "في ظلال القرآن" نموذجا جيدا وبخاصة مقدمة تفسيره لكل سورة.

كما كتب غيره ممن جاء بعده مستفيدا من منهجه، كما فعل إبراهيم زيد الكيلاني في كتابه "تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام"، وكتابه "معركة النبوة مع المشركين" أو: قضية الرسالة كما تعرضها سورة الأنعام وبينها القرآن الكريم.

أما ما كتبه د. محمد البهي في رسائله المسماة بالتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم فلا أعتبره من التفسير الموضوعي وإنما هو تفسير إجمالي للآيات في السورة كما لم يحدد موضوع كل سورة فسرها، وإنما جاء بكلام إنشائي للمعنى الإجمالي للآيات.

أهمية التفسير الموضوعي:

التفسير الموضوعي هو تفسير العصر والمستقبل معاً، وهذا التفسير يحقق للمسلمين فوائد عديدة من حيث صلتهم بالقرآن وتعرفهم على مبادئه وحقائقه، وتشكيل تصوراتهم وتكوين ثقافتهم، ومن حيث عملهم على إصلاح أخطائهم وتكوين مجتمعاتهم، والوقوف أمام أعداء الإسلام. وتبرز أهمية التفسير الموضوعي في:

1 – حل مشكلات المسلمين المعاصرة، وتقديم الحلول لها، على أسس حث عليها القرآن الكريم.

2 – تقديم القرآن الكريم، تقديماً علمياً منهجياً لإنسان هذا العصر، وإبراز عظمة هذا القرآن، وحسن عرض مبادئه وموضوعاته.

3 – بيان مدى حاجة الإنسان المعاصر إلى الدين عموماً، وإلى الإسلام خصوصاً، وإقناعه بأن القرآن هو الذي يحقق له حاجاته.

4 – الوقوف أمام أعداء الله وتفنيد آرائهم وأفكار الجاهلية.

5 – عرض أبعاد ومجالات آفاق جديدة لموضوعات القرآن، وهذه الأبعاد تزيد إقبال المسلمين على القرآن.

6 – إظهار حيوية وواقعية القرآن الكريم، حيث إنه مُصْلِح لكل زمان ومكان فلا ينظر الباحثون إلى موضوعات القرآن على أنها موضوعات قديمة، نزلت قبل خمسة عشر قرنا، وإنما يعرضونها في صورة علمية واقعية، تناقش قضايا ومشكلات حية.

7 – التفسير الموضوعي يتفق مع المقاصد الأساسية للقرآن الكريم، ويحقق هذه المقاصد في حياة المسلمين.

8 – التفسير الموضوعي أساس تأصيل الدراسات القرآنية، وعرضها أمام الباحثين عرضاً قرآنياً منهجياً، وتصويب هذه الدراسات، وتخليصها مما طرأ عليها من الأفكار غير القرآنية.

9 – عن طريق التفسير الموضوعي يستطيع الباحث أن يبرز جوانب جديدة من وجوه إعجاز القرآن الذي لا تنقضي عجائبه.

10 – تأهيل الدراسات القرآنية وتصحيح مسارها مثل (الإعجاز العلمي)، وذلك بضبطها بقواعد علمية مستمدة من هدايات القرآن الكريم، لتجنب التفريط والإفراط في نسبة المسائل والموضوعات للقرآن، ومثل ذلك (أصول التربية القرآنية)، و (أصول علم الاقتصاد الإسلامي)، و (أصول الإعلام الإسلامي)، فالحاجة ماسة لتأصيل هذه العلوم، ووضع الأسس والضوابط لها، ولا يتم ذلك إلا من خلال دراسة آيات القرآن الكريم وفق منهج التفسير الموضوعي (1).

11 – بالتفسير الموضوعي ينفذ الباحثون أمر الله – سبحانه وتعالى – بتدبر القرآن الكريم وإمعان النظر فيه وإحسان فقهه وفهم نصوصه.

وهكذا برز التفسير الموضوعي في عصرنا الحاضركملجأ للأمة تجد فيه حلولاً لمشكلات واقعها، من خلال رؤية واضحة مستمدة من كتاب ربنا، تنطلق من آياته، لتحقق توجيهاته، ملتزمة بضوابطه، تقتبس وسائلها من أنواره، ويهتدي العاملون فيه بآدابه حتى يؤدوا مهمتهم على الوجه الأكمل المرضيِّ.

هذا البروز وهذه المكانة لهذا النوع من التفسير كان دافعاً – للباحث – لاستقراء آيات القرآن، وتتبع أساليبه، وهداياته، كي أستخرج منه صور الإعلام الإسلامي وتطبيقاته التي تبقى كنزاً لا ينفد، ومعيناً لا ينضب، لكل ملتمسٍ وباحث عن الحق والهدى.

ضوابط التفسير الموضوعي

ضوابط التفسير الموضوعي

1. أن يجلس الباحث بين يدي القرآن الكريم تلميذاً يسأله ويستفهم منه ويستبين به ويستعين بآياته في فهم بعضها بالبعض الآخر، لا أن يجعل من نفسه ندّاً يناقش القرآن بأفكارٍ مسبّقة، أو يأتيه وهو مشبّع بالرواسب الفكرية ليلوي عنق النص بناءً عليها لكي توافقه لا طلباً لأنْ يوافقها. فالتفسير الموضوعي بمعناه الأول –القسم الأول– يحتاج إلى باحث خالي الذهن، وأنّه بهذا يختلف عن ما يفعله الكثير ممن يبحث أو يكتب في موضوعٍ معيِّن في حقل من حقول المعرفة ثم يلتمس آيات وروايات تدعم رأيه وتؤيّد دعواه.

2. أن يتحلّى بالموضوعية ويبتعد عن الذاتية" لأنّه شرط تفرضه طبيعة البحث العلمي.

خصائص التفسير الموضوعى

- مصدر أساسى لتفسير للقرآن بالقرآن.
- مرتبط بموضوع معين من موضوعات القرآن ولايناقش أى موضوع لم يرد فيه.
- يعتمد على عمق النظر في دلالات الآيات المتباعدة في الموضوع الواحد وسياقاتها المتعددة أيضا للاستهداء.
- يناقش الواقع بطريقة معاصرة من خلال وجهة النظر القرآنية.

مع حركة التفسير في مسيرتها التاريخية

أنزل الله القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وجعله ميسَّرا للذكر والفهم والتلاوة والحفظ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17]. ومع هذا التيسير فإن آيات القرآن واضحات كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [البقرة: 99]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أخبر الله عز و جل أن وظيفة الرسول (ﷺ) هي تبيين آيات القرآن، كما قال عز من قائل: ﴿.....وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]. فإذن كان الرسول عليه الصلاة والسلام المفسر الأول.

ومن الجدير بالذكر أن الرسول لم يفسر كل القرآن آية آية، وذلك للأسباب التالية:

1- كان الصحابة يعرفون معظم معاني القرآن، وما خفي عليهم معناه، وغمض عليهم تفسيره، كانوا يسألون عنه رسول الله (ﷺ)، فيجبيهم على سؤالهم، ومعظم القرآن لم يكن بحاجة إلى تفسير زمن الصحابة، لفهمهم له.

2- وكانوا رضوان الله عليهم يتحرجون من كثرة الأسئلة حول كل صغيرة وكبيرة، وذلك امتثالا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ [المائدة: 101]، وقد نبههم إلى هذا قول النبي (ﷺ) {قال إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا من سَأَلَ عن شَيْءٍ لم يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ من أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ} رواه البخاري. ولكن هذا التحرج كان نابعا من أدبهم مع القرآن الكريم، ومع الرسول عليه الصلاة والسلام، ولو ادعت الضرورة لسؤالهم لسألوا.

3- وسبب ثالث في نفس أهمية السببين اللذين ذكرا، أن الرسول (ﷺ) أفسح المجال للعقل البشري أن يؤدي وظيفته تجاه القرآن، ألا وهي التدبر، كما قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]، والتدبر أي أن يمعن الإنسان نظره في معاني القرآن الكريم، ويبحث بين ثنايا آياته عن اللطائف والإشارات التي قد تبدو خافية على البعض، ولو فسر عليه السلام كل القرآن لم تجرأ أحد أن يأتي ويفسر بعده.

4- القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التي تبقى معطاءة عبر القرون، وليس في مقدور العقل البشري أن يحيط بكل معاني القرآن، بل كلما ظن الإنسان أنه بلغ نهاية القرآن يرى أمامه أفقا واسعا من المعاني والإشارات واللطائف لم تُبحث بعد، وفي هذا الصدد يروى عن الرسول عليه السلام أنه قال: {وهو حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وهو الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وهو الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هو الذي لَا

تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ ولا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ ولا يَشْبَعُ منه الْعُلَمَاءُ ولا يَخْلَقُ على كَثْرَةِ الرَّدِّ ولا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ} أخرجه الترمذي في باب ما جاء في فضل القرآن.

استمرت حركة التفسير في مسيرتها التاريخية على مدار القرآن والأجيال، وامتلأت مكتبة التفسير بالتفاسير المختلفة، على اختلاف مدارسها واتجاهاتها، ولقد مرت حركة التفسير في مسيرتها التاريخية – منذ الصحابة الكرام وحتى العصر الحاضر– بأربع مراحل بارزة، تميّز التفسير في كل واحدة منها بمزايا خاصة.

هذه المراحل هي: التفسير في طور التأسيس، والتفسير في طور التأصيل، والتفسير في طور التفريع، والتفسير في طور التجديد.

وفيما يلي حديث مجمل – في غاية الإيجاز والإجمال– عن كل مرحة، وعن طبيعة التفسير فيها، والمنهج الذي برز واضحا فيها.

المرحلة الأولى– التفسير في طور التأسيس:

هذه المرحلة الأساسية هي التي نشأ فيها التفسير نشأة علمية صحيحة، وتأسس فيها علم التفسير تأسيسا قويا متينا، واتصف بالعلمية والمنهجية والموضوعية.

وامتدت هذه المرحة على مدار القرون الخيرية الثلاثة الأولى، التي شهد لها الرسول (ﷺ) بالفضل والخير، وتمثل هذه القرون الثلاثة الأجيال الثلاثة الأولى: جيل الصحابة، وجيل التابعين، وجيل أتباع التابعين.

بدأت هذه المرحلة التأسيسية على يد رسول الله (ﷺ)، حيث (ﷺ) أوّل من فسّر القرآن، ولهذا يعتبر الرسول المؤسس لعلم التفسير، ويكفي هذا فضلا ومزية لعلم التفسير الشريف.

وبعد رسول الله (ﷺ) قام الصحابة بتفسير القرآن، وكان الصحابة متفاوتين في فهم القرآن وفي تفسيره. وأشهر المفسرين من الصحابة عشرة، وهم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعمثان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبدالله بن عباس، وعبالله بن مسعود، وعبدالله بن الزبير، وأبي بن كعب، وأبو موسى الأشعري، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم أجمعين.

وثلاث من المفسرين العشرة كانوا أشهر من غيرهم في التفسير وهم:

1– عبدالله بن عباس.

2– أبي بن كعب.

3– عبدالله بن مسعود.

اشهر مدارس التفسير

اشتهرت ثلاث مدارس للتفسير زمن الصحابة:

1- **مدرسة التفسير بمكة:** وقد تأسست على يد حبر الأمة وترجمان القرآن، عبدالله بن عباس رضي الله عنهما. ومن تلاميذ ابن عباس في هذه المدرسة: مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وآخرون.

2- **مدرسة التفسير بالمدينة:** وقد تأسست على يد الصحابي أبي بن كعب الأنصاري رضي الله عنه، ومن أشهر رجال هذه المدرسة: سعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وآخرون.

3- **مدرسة التفسير بالكوفة:** وقد تأسست على يد الصحابي عبدالله بن مسعود: ومن أشهر رجال هذه المدرسة: الحسن البصري، وقتادة، وآخرون.

وبعد انتهاء جيل الصحابة، جاء جيل التابعين، وأشهر المفسرين في هذا الجيل كانوا تلاميذ أئمة المدارس الثلاثة: تلاميذ ابن عباس في مكة، وتلاميذ أبي بن كعب في المدينة، وتلاميذ ابن مسعود في الكوفة.

وجاء بعد التابعين، جيل (أتباع التابعين) وظهر علماء الطبقة الثالثة من طبقات المفسرين، وهم تلاميذ التابعين، وبعضهم دوّن تفاسير مستقلة للقرآن الكريم. وقد جمعت أقوال بعض التابعين وأتباعهم في التفسير في كتب، ومن أشهر التفاسير التي ظهرت مطبوعة جامعة لأقوال هؤلاء: تفسير مجاهد، تفسير الحسن البصري، وتفسير سفيان الثوري.

المعالم العامة لهذه المرحلة:

1- التفسير في مرحلة التفسير كان يتصف بالإيجاز والاختصار.

2- لم يتم تفسير القرآن كاملا من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، وإنما كان المفسر يفسّر الآيات التي يسأل عنها، أو التي تدعو الحاجة إلى تفسيرها.

الاتجاهات البارزة في هذه المرحلة:

الاتجاه الأول: اتجاه التفسير بالمأثور: كان يعتمد أصحابه على إيراد الأقوال المأثورة في تفاسيرهم، ومن أحاديث مرفوعة للرسول (ﷺ)، ومن أقوال للصحابة أوالتابعين. ومن التفاسير

المطبوعة التي تمثل هذا الاتجاه الأثري: تفسير مجاهد، وتفسير الحسن البصري، وتفسير سفيان الثوري.

الاتجاه الثاني: الاتجاه اللغوي البياني: وكان أصحابه يفسّرون بعض كلمات القرآن تفسيرا لغويا وبيانيا، حيث يذكرون معنى الكلمة القرآنية في اللغة، واشتقاقها، وتصريفها، ويوردون الشواهد الشعرية على ما يذكرون. ومن التفاسير اللغوية: مجاز القرآن لأبي عبيدة، ومعاني القرآن لأبي زكريا الفراء، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة.

المرحلة الثانية- التفسير في طور التأصيل:

وهذه المرحلة مبنية على ما قبلها بناء سليما، ومرتبطة بها ارتباطا وثيقا، وتم في مرحلة (التأصيل) ترسيخ المنهج الأصيل لعلم التفسير، وكانت مرحلة التأصيل في نهاية القرن الثالث، وأرسى أسس وقواعد علم التفسير في هذه المرحلة إمام المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.

وصل إلى الإمام ابن جرير الاتجاهان السابقات البارزان في مرحلة التأسيس، اتجاه التفسير الأثري، واتجاه التفسير اللغوي.

في حين كان صاحب التفسير اللغوي - كالأخفش والفراء- لا يكاد يذكر الأقوال المأثورة في التفسير، ولا يكاد يقدم اجتهاداته واستنباطاته، وصاحب التفسير الأثري - كالسدي الكبير وعبدالرزاق- لا يكاد يتعرض للغة في تفسيره، ولا يكاد يقدم اجتهاداته أيضا، فلما جاء الإمام الرائد ابن جرير الطبري جمع بين الاتجاهين الأساسيين، التفسير الأثري، والتفسير اللغوي، وأضاف لهما استنباطاته وترجيحاته. ولذا قام هذا (المنهج الجامع) على ثلاث أسس منهجية موضوعية:

الأول- **تفسير القرآن باللغة**: حيث كان يقدم معاني الكلمات والجمل القرآنية، ويذكر تحليلات وتوجيهات بيانية لغوية، ويورد شواهد شعرية، ويجري نقاشات بيانية ونحوية، مستفيدا من التفاسير اللغوية السابقة مثل (مجاز القرآن) لأبي عبيدة، و(معاني القرآن) للفراء.

الثاني- **تفسير القرآن بالمأثور**: حيث كان الطبري يورد الأقوال المأثورة في تفسير الآية أو الجملة أو الكلمة، سواء كانت تلك الأقوال المأثورة أحاديث مرفوعة، أو أقوالا للصحابة، أو التابعين، أو أتباع التابعين، مستفيدا من التفاسير الأثرية السابقة مثل تفسير مجاهد، وتفسير قتادة، وتفسير سفيان الثوري.

الثالث- **تقديم استنباطاته واجتهاداته وتأويلاته**، حيث كان الطبري يتدبر الآيات، ويمعن النظر فيها، ويستخرج مناه بعض ما توحي له به من معان ودلالات. ونلاحظ أن هذه الخطوة تأتي في ترتيبها المناسب، حيث سبق وقلنا أن التفسير يأتي أولا، ثم يأتي التأويل.

المرحلة الثالثة- التفسير في طور التفريع:

انتقل المفسرون بعد الطبري بالتفسير إلى خطوة ومرحلة أخرى، وهي الانطلاق من التأصيل إلى التفريع والتنويع. صار المفسرون يتوسعون في تفاسيرهم، ويوردون الكثير من المسائل والمباحث والقضايا، وبينما كان الطبري يفسر القرآن على أساس (المنهج الجامع) القائم على اللغة والأثر والاستنباط، كان المفسرون اللاحقون يفسرونه على أساس (المنهج الغالب) في التفسير.

لقد كان واحد من هؤلاء المفسرين يفسر القرآن وفق العلم الذي مهر فيه وغلب عليه، فالمتخصص في اللغة غلب على تفسيره مباحث اللغة والبيان، والمتخصص في الفقه والأحكام غلب هذا اللون على تفسيره، والمتخصص في المأثور والروايات غلب هذا اللون على تفسيره، والمتخصص في المباحث العقلية والكلامية غلبت هذه المباحث على تفسيره، وهكذا.

وبذلك تحول التفسير من (المنهج الجامع) إلى (المنهج الغالب)، وانتقل التفسير من طور التأصيل إلى طور التفريع. وفي هذا الصدد يقول محمد حسين الذهبي صاحب كتاب (التفسير والمفسرون) (وإنا لنلحظ في وضوء وجلاء: أن كل من برع في فن من فنون العلم، يكاد يقتصر تفسيره على الفن الذي برع فيه).

فالنحوي تراه لا هم له إلا الإعراب، وذكر ما يحتمل في ذلك من أوجه، وتراه ينقل فروع النحو وخلافياته، كالزجاج، والواحدي، وأبي حيان في البحر المحيط.

وصاحب العلوم العقلية تراه يعني في تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، كالفخر الرازي في مفاتيح الغيب.

وصاحب الفقه تراه قد عنى بتقرير الأدلة للفروع الفقهية، كالجصاص، والقرطبي.

وصاحب التاريخ يهتم بالقصص وذكر أخبار من سلف، كالثعلبي والخازن.

وأصحاب التصوف: قصدوا إلى ناحية الترغيب والترهيب، واستخراج المعاني الإشارية من الآيات القرآنية كابن عربي وأبو عبدالرحمن السلمي.

وقد استمرت هذه المرحلة قرونا عديدة، من القرن الرابع حتى نهاية القرن الثالث عشر.

المرحلة الرابعة– التفسير في طور التجديد.

بقي المفسرون منذ القرن الرابع حتى القرن الرابع عشر يفرعون وينوعون في تفاسيرهم، حتى جاء العصر الحديث، وتميّز التفسير في العصر الحديث بمزية (التجديد)، ولهذا أطلق على هذه المرحلة اسم (التجديد).

ونعني بالتجديد في التفسير: التجديد الصحيح السليم، المنضبط بالضوابط العلمية، المتلزم بالأسس المنهجية، التجديد القائم على الإبداع والتحسين والجدة، والاستفادة من العلوم والمعارف والثقافات المعاصرة، وتوسيع أبعاد معاني الآيات القرآنية، وإحسان تنزيلها على الواقع، والعمل على حل مشكلات المجتمع على هدي حقائق القرآن الكريم.

ولا نعني بالتجديد الخروج على القواعد والضوابط والأسس العلمية المنهجية، والانفلات والفوضى، والقول في القرآن بدون علم، وتحريف معاني الآيات ودلالاتها.

بدأت مرحلة التجديد في العصر الحديث بالشيخ محمد عبده، الذي أرسى معالم مدرسة خاصة في التفسير وفهم القرآن، وله تلاميذ وأتباع يوافقونه ويقتدون به، ومعالم منهج هذه المدرسة منها ما هو صحيح طيب مقبول، ومنها ما هو مردود ومرفوض، وأصاب مفسروا هذه المدرسة كثيرا، كما أنهم أخطؤوا في مواضع عديدة.

ولكن المسلم به أن محمد عبده وتلاميذه أحدثوا هزة وتجديدا في فهم القرآن وتفسيره، غيّروا بها النظرة التقليدية الرتيبة التي طغت على قرون عديدة سابقة. وفي مقدمة رجال محمد عبده الذين قدموا جهودا طيبة في تفسير القرآن الشيخ محمد رشيدا رضا، صاحب (تفسير القرآن الحكيم) المشهور باسم (تفسير المنار)، ولكنه توفي قبل إكماله.

ومن العلماء الذين أصدروا دراسات قرآنية نافعة، البهي الخولي، ومحمد الغزالي، وسعيد حوى صاحب (الأساس في التفسير)، وآخرون.

وفي مقدمة هؤلاء العلماء والمفكرين سيد قطب، الذي انتقل بالتفسير نقلة بعيدة فريدة، عندما كتب تفسيره الرائد (في ظلال القرآن)، الذي اعتبره الدارسون والباحثون معلما بارزا هاديا إلى فهم القرآن وتفسيره.

ومن أشهر التفاسير المعاصرة: (محاسن التأويل) لجمال الدين القاسمي، و(أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن) للشنقيطي، و(التحرير والتنوير) لمحمد ابن عاشور، و(نحو التفسير

الموضوعي للقرآن الكريم) لمحمد الغزالي، و(تفهيم القرآن) لأبي الأعلى المودودي، و(التفسير المنير) للدكتور وهبة الزحيلي.

اقسام التفسير حسب الشكل

بقي أن نعرف أن معظم الدارسين المعاصرين يقسمون التفسير بشكل على أربعة أنواع، وهي كالآتي:

1- التفسير التحليلي.

2- التفسير المقارن.

3- التفسير الجملي أو الإجمالي.

4- التفسير الموضوعي.

أما التفسير التحليلي فهو الذي يتبع فيه المفسر ترتيب المصحف، فيشرح جملة من الآيات، أو سورة، أو القرآن كله ويبين ما يتعلق بكل آية من: مناسبتها، وسبب نزولها، ومفرداتها، ونحو ذلك مما يتقرر به معناها، فهو أقدم أساليب التفسير، فقد كان التفسير في نشأته الأولى يتناول الآيات المتتابعة ولا يتجاوزها المفسر إلى غيرها.

وهذا الأسلوب من التفسير هو الغالب على المؤلفات في التفسير، وأشهر التفاسير وأهمها قديما وحديثا، ومن ذلك تفسير جامع البيان للإمام الطبري، وفتح القدير للشوكاني، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير.

والتفسير المقارن هو الذي يتبع المفسر آية من القرآن، أو جملة من الآيات، ليستطلع آراء المفسرين فيها، ويقارن بين أقوالهم، ويستخلص نتائج المقارنة سواء من معاني الآيات الكريمة، أو من كلام المفسرين، ويرى آخرون في التفسير المقارن أن يعمد المفسر فيه إلى الآية أو الآيات فيجمع ما هو في موضوعها من نصوص، سواء كانت نصوصا قرآنية أخرى أو نصوصا نبوية أو أقوال الصحابة، رضي الله عنهم، أو أقوال التابعين والمفسرين أو الكتب السماوية الأخرى، ثم يقارن هذه النصوص ويوازن بين الآراء، ويستعرض الأدلة، ويبين الراجح منها.

والتفسير الإجمالي أو الجملي، هو الأسلوب الذي يعمد فيه المفسر إلى خلاصة معنى الآية أو الآيات التي يفسرها، ويبرز مقاصدها، ويشرح الدقيق من ألفاظها، وسبب نزولها حتى يتقرر المعنى العام بلا دخول في تفاصيل كثيرة. وهذا النوع قد سلكه المحدثون في تقدمة التلاوة

بالإذاعة، والمقصود منه: إعطاء فكرة إجمالية عما يتلوه القارئ من القرآن الكريم، حتى يكون السامع داريا لما يتلى عليه، واعيا لمقاصده، ملما بأطرافه.

والتفسير الموضوعي: كما بيّن في تعريفات في أُوَل المحاضرات، وهو الذي يجمع فيه المفسر الآيات الكريمة المتعلقة بموضوع واحد، على مستوى القرآن كله، أو مجموعة من سوره كالحواميم مثلا، وهذا الأسلوب لا يفسر فيه صاحبه الآيات حسب ترتيب المصحف، بل يجمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد فيفسرها، كتفسير القرآن بالقرآن، أو تفسير آيات الأحكام، وهذا الأسلوب هو موضوع بحثنا، وهو ما سنتناوله إن شاء الله تعالى بشيء من التفصيل.

مناهج البحث في التفسير الموضوعي:

أولا: منهج البحث في موضوع من خلال القرآن الكريم:

إذا أراد الباحث أن يطرق موضوعا من موضوعات القرآن الكريم، لا بد أن يكون تصورا لأبعاد الموضع، وأن يتدرج في جميع المادة العلمية حوله حسب الخطوات التالية:

1- اختيار عنوان للموضوع القرآني مجال البحث، بعد تحديد معالم حدوده ومعرفة أبعاده في الآيات القرآنية.-

2- جمع الآيات القرآنية التي تبحث هذا الموضوع، أو تشير إلى جانب من جوانبه.

3- ترتيب هذه الآيات حسب زمن النزول، وذلك لأن ما أنزل بمكة كان في الأعم الأغلب يتعلق بأسس عامة غير محددة الجوانب كالأمر بالإنفاق أو الزكاة أو الإحسان بينما حددت معالم هذه التشريعات في المرحلة المدنية.

4- دراسة تفسير هذه الآيات دراسة وافية بالرجوع إلى كتب التفسير التحليلي والتعرف على أسباب نزولها إن وجدت، وإلى دلالات الألفاظ واستعمالاتها، والروابط بين الألفاظ في الجملة وبين الجمل في الآية وبين الآيات في المجموعة التي تتحدث عن الموضوع.

5- بعد الإحاطة بمعاني الآيات مجتمعة يحاول الباحث أن يستنبط العناصر الأساسية للموضوع من خلال التوجيهات القرآنية التي أحاط بها أو استنبطها من الآيات المتعلقة بالموضوع، وللباحث أن يقدم بعض العناصر الرئيسية على غيرها، إن وجد أن طبيعة البحث تقتضي ذلك أو أن تسلسل الأفكار المنطقي يلزم هذا التقديم أو التأخير.

6- ثم يلجأ الباحث إلى طريقة التفسير الإجمالي في عرض الأفكار في بحثه ويحاول أن لا يقتصر على دلالة الألفاظ اللغوية وإنما يستشف الهدايات القرآنية من خلال النصوص، كما يستدل على ما أشارت إليه الآيات الكريمة بالأحاديث النبوية الشريفة ويدعم كل ذلك بفهم الصحابة رضوان الله عليهم لنصوص آي الذكر الحكيم. ويوجه ويعلل ويشرح ويناقش في ضوء التوجيهات القرآنية، وإن وجد ما يوهم التناقض بين بعض الآيات التي تناولت الموضوع فلا بد من إزالة هذا الوهم، وإبراز الحكمة الإلهية في وجود مثل هذه النصوص.

7- لا بد للباحث من الالتزام بمنهج البحث العلمي عندما يضع مخطط البحث للموضوع، وقد يفرض الموضوع طبيعة المنهج والخطة التي سيجري البحث من خلالها. فإن كان الموضوع متشعب المباحث والمجالات لا بد عندئذ من وضع تمهيد بين الباحث فيه منهجه في تناول الموضوع.

ثم يقسم الموضوع إلى أبواب ويضع تحت كل باب فصولا وتحت كل فصل مباحث فيجعل العنصر الأساسي الجامع عنوانا للباب ثم يجعل العنصر الفرعي عنوانا للفصل، ثم يجعل الجزئيات الصغيرة عناوين للمباحث.

أما إذا كان الموضوع محدد المعالم والآفاق واضح المجالات قليل العناصر، فلا بأس من بحثه عندئذ على شكل مقاله علمية تتكون من مقدمة وصلب الموضوع وخاتمة، يتناول في كل ذلك القضية المطروحة بأسلوب علمي رصين موثق بالأدلة والشواهد، وبدون خلاصة ما توصل إليه في الخاتمة بشكل موجز.

وليكن هدف الباحث في كل ذلك:

- إبراز حقائق القرآن الكريم، وعرضها بشكل لافت للنظر مع ذكر حكمة التشريع وجماله ووفائه بحاجات البشر وملاءمته للفطرة السليمة وإطلاقه للطاقات الإيجابية في الإنسان.

- عرض تلك الحقائق بأسلوب مشرق عذب بذكر الأفكار متسلسلة آخذة برقاب بعضها ملبية لاستشراف نفس القارئ، مجيبة عن استفساراته المتوقعة، وذلك باتباع الأسلوب البياني الصحيح الذي يفهمه أهل عصره، متجنبا الألفاظ الغريبة المهجورة وأساليب السجع المتكلفة.

ملحوظات:

1- على الباحث في التفسير الموضوعي أن يجعل عناوين الأبواب والفصول من المادة القرآنية والعناصر البارزة فيه. أما السنة المشرفة فدورها في التفسير الموضوعي التوضيح والبيان والاستدلال وذلك حفاظا على قرآنية الموضوع.

وكذلك أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة اللغة، فكلها مادة للشرح والتوضيح والترجيح، ولا تشكل عناصر الموضوع الأساسية.

2- على الباحث أن يلتزم بالمنهج الصحيح في التفسير، وذلك بإبعاد الروايات الضعيفة والإسرائيليات والقصص التاريخي عند عرض الموضوع القرآني وتركيز الجهد لاستنطاق النصوص الكريمة على قواعد اللغة والأساليب البيانية، ودقة الاستنباط منها.

3- عند الحاجة إلى شرح كلمة غريبة أو توجيه، قراءة، أو إبراز نكتة بلاغية أثناء عرض أحد عناصر الموضوع، يجعل ذلك تعليقا في الحاشية من غير استطراد يخل بتسلسل الأفكار وتعانق الفقرات وسلاسة الأسلوب وإشراقة البيان.

ثانيا: منهج البحث في التفسير الموضوعي لسورة واحدة:

لقد ألفت مؤلفات قديما وحديثا في تفسير سورة واحدة، وربما خص بعض العلماء تأليفا مستقلا حول سورة واحدة، نظرا لمكانة هذه السورة الخاصة أو لاهتمامه بغرض تعرضت له السورة.

ولتفسير السورة الواحدة تفسيرا موضوعيا لا بد من اتباع خطوات منهجية علمية ليؤتي العمل ثماره، وتكون الثمار المتوقعة مكافئة للجهد المبذول.

ونذكر فيما يلي هذه الخطوات بشكل موجز ثم نعود إلى تفصيل بعضها:

أولا: التقديم للسورة بتمهيد يعرف فيه بأمور تتعلق بالسورة من ذكر سبب النزول أو المرحلة التي نزلت فيها السورة: مكية متقدمة أو متوسطة أو متأخرة، مدنية متقدمة أو متأخرة. وما ورد فيها من أحاديث صحيحة تحدد أسماءها، أو بعض خصائصها أو فضائلها.

ثانيا: محاولة التعرف على الهدف الأساسي في السورة والمحور الذي تدور حوله ويكون ذلك من خلال دلالة الاسم، أو الموضوعات المطروحة في السورة أو أخذا من المرحلة التي نزلت فيها.

ثالثا: تقسيم السورة -وبخاصة الطويلة- إلى مقاطع أو فقرات تتحدث آياتها عن عنصر من عناصر الهدف أو مجال من مجالات المحور، واستنباط الهدايات القرآنية منها وذكر المناسبات بينها.

رابعا: ربط هذه المقاطع وما يستنبط من هدايات من كل منها بالهدف الأساسي للسورة بقصد إظهار هذا الهدف وكأنها جداول صغيرة تمد المجرى الأساسي للنهر، أو الشطآن الملتفة حول جذع الدوحة، تقوي أصلها وتدعم ساقها وتآزر متنها لتستوي على سوقها وتعجب الناظرين فيها.

صلة التفسير الموضوعي بالأنواع الأخرى من التفسير:

لا يمكن الفصل بين أنواع التفسير فصلا رياضيا بحيث تنقطع وشائج القربى بينها ويكون لكل نوع مجاله وأسلوبه ونتائجه.

وذلك لأن مجال البحث واحد وهو كلام الله سبحانه وتعالى، والغاية التي يهدف إليها المفسر واحدة أيضا وهي الكشف عن مراد الله سبحانه وتعالى من الآيات على قدر الطاقة البشرية، إلا أن مناهج المفسرين للوصول إلى الغاية هي التي تختلف بعض الشيء.

وحتى هذا الاختلاف في المنهج ليس اختلاف تباين وانفصال وتضاد بل هو اختلاف تنوع وتعاضد وترادف.

وبعض أنواع التفسير تعتبر أساسا للانطلاق منه إلى غيره فلا يستغني عنه المفسر الباحث في أي نوع من أنواع التفسير.

فالتفسير التحليلي لا يستغني عنه الباحث في التفسير الإجمالي أو الموضوعي أو المقارن، وذلك لأن التفسير التحليلي ينصب على معرفة دلالة الكلمة اللغوية ودلالتها الشرعية، والتعرف على الرابط بين الكلمات في الجملة وبين الجمل في الآية وبين الآيات في السورة. وكذلك التعرف على القراءات وأثرها على دلالة الآية، ووجوه الإعراب ودورها في الأساليب البيانية وإعجاز القرآن الكريم. وغيرها من الوجوه التي تساعد على إخلاء المعنى وتوضيح المراد. فالذي يريد تفسير الآيات تفسيرا إجماليا لا يستطيع أن يعبر عن موضوع الآيات التي يريد التعبير عنها بأسلوبه الخاص لتقريب المعاني وإبراز جوانب الهداية منها ما لم يلم بتفصيلات ما تقدم من أمور التفسير التحليلي لاستجلاء المعنى المراد ثم صياغته بأسلوب يتناسب مع المدارك الثقافية للمخاطبين.

وكذلك بالنسبة لمن يتناول الآيات وتفسيرها بأسلوب التفسير المقارن فالحكم على الشيء فرع عن تصوره، لا بد أن يحيط بأقوال المفسرين الذين كتبوا في تفسير الآيات ليدرك المفسر الذي لم يخرج عن روح النص والغرض الأساسي من الآيات الكريمة، عن المفسر الذي تعسف في

تأويل هذه الآيات وحملها ما لم تحتمل، أو لم يدرك المرمى اللغوي للكلمة القرآنية فانحرف بها عن دلالتها وأولها غير تأويلها الصحيح، فأبعد في التأويل ووقع في محاذير. ولكي يحكم على صواب منهج المفسر أو خطئه، وإجادته في تفسيره أو تخبطه فيه لا بد أن يكون على دراية وافية بمعاني الآيات الكريمة فلا بد له من الرجوع إلى التفسير التحليلي، وقد يستخدم للتعبير عن حكمه على التفاسير التي يقارن بينها أسلوب التفسير الإجمالي للآيات.

أما الباحث في التفسير الموضوعي فاعتماده على جمع الأنواع المتقدمة من التفسير أمر أساسي في كتابته ومنهجه ولا غنى له عن أحد الأنواع.

إذ يعتبر هذا اللون من التفسير ثمرة الأنواع كلها، ويعتبر التفسير الموضوعي مرحلة تخصصية متأخرة عن مراحل الأنواع السابقة ولذلك:

أ- عندما يجمع المفسر الآيات المتعلقة بموضوع من الموضوعات، لا بد من الرجوع إلى دلالات الكلمات التي تعبر عن هذا الموضوع بشكل صريح أو تشير إليه إشارة أو يكون الموضوع من لوازم هذه اللفظة أو العبارة، أو نتيجة من نتائج استخدام هذه العبارة.

وكثيرا ما تستخدم الجملة أو الآية الواحدة في موضوعين مختلفين ويكون لها دلالة مختلفة حسب الموضوع وحسب السياق والسياق عن دلالة الموضع الآخر. فلكي يدرك الباحث في هذا اللون من التفسير -أعني التفسير الموضوعي- لا بد أن يكون مدركا إدراكا تاما لأقوال المفسرين الذين كتبوا في تحليل هذه الآيات.

ب- وكثيرا ما تتباين أقوال المفسرين الذين كتبوا في تحليل النص القرآني بحيث لا يمكن الجمع بينها، والآيات القرآنية حمالة للوجوه المتعددة فلا بد للمفسر الذي يكتب في موضوع ما، ووجد هذه الأقوال في تفسير آية تتعلق بموضوعه، لا بد من وقفة متأنية دقيقة، ونظرات ثاقبة للترجيح بين هذه الأقوال ومعرفة المصيب منها وغير المصيب، وليختار القول المناسب لموضوعه من هذه الأقوال بغية توضيح عناصر الموضوع والربط بين الأساليب القرآنية في أداء المعنى، وبالتالي للوصول إلى الهدايات القرآنية المتعلقة بالموضوع مجال البحث. وهذا هو التفسير المقارن.

جـ- ولما كان الموضوع الذي يتناوله الباحث في التفسير الموضوعي حسب أحد منهجين لا ثالث لهما:

- تناول موضوع من خلال القرآن الكريم كله. فعندئذ لا بد له من تقسيم الموضوع إلى عناصر حسب تناول الآيات الكريمة لها، وللتعبير عن العنصر الذي استنبطه من خلال الآيات، ولا مناص من اللجوء إلى التفسير الإجمالي ليقرر هذا العنصر ويوضحه ويشرحه ويسوق له الأدلة.

- أو تناول الموضوع من خلال سورة قرآنية معينة.

وعندئذ لا بد له من تقسيم السورة إلى مقاطع حسب ترتيب الآيات في السورة أو حسب تسلسل عناصر الموضوع أو الهدف الأساسي في السورة أو المحور الذي تدور عليه السورة. وللتعبير عن مضامين هذه المقاطع وتوضيح الهدايات القرآنية منها ثم ربطها بالهدف الأساسي للسورة وضمن الإطار الذي تعرض السورة فيه هذا الهدف أو الأهداف. لا بد للباحث من اللجوء أيضا إلى التفسير الإجمالي في طريقة عرضه لهذه الأهداف وربط المقاطع كلها بمحور السورة لإبراز الهدف الأساسي فيها. إذن نستنتج من كل ما تقدم أن أنواع التفسير متداخلة متساندة، لا يستغني المفسر لنوع منها عن الأنواع الأخرى.

وبخاصة الباحث في التفسير الموضوعي لا بد أن يكون على مستوى رفيع من الإحاطة بأنواع التفسير الأخرى" لأن الأنواع الأخرى من التفسير هي اللبنات الأولى والمادة الأولية التي يريد إقامة بنيان تفسيره الموضوعي عليها.

علم المناسبات والتفسير الموضوعي

علم المناسبات وثيق الصلة بالتفسير الموضوعي –وبخاصة التفسير الموضوعي للسورة– وذلك لأننا نلحظ أن الآية أو مجموعة الآيات تنزل في أسباب مختلفة وحوادث متفرقة ثم توضع في سورة واحدة. وقد تكون بين الآيات التي وضعت في موضع ما من السورة والآيات التي وضعت عقبها فترة زمنية قصيرة لا تتعدى الأيام وقد تكون فترة طويلة تتجاوز عدة سنوات –كما في سورة النساء في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} والآيات التي قبلها من 51 إلى 58– ولكننا عندما نقرءوها نجد أن وحدة الموضوع يجمعها ومرمى الهدف والغاية من سياقها جميعها شيء واحد.

لذا كان من المهم أن نلم أولًا بأطراف ما قيل في علم المناسبات بين الآيات في السورة الواحدة، وبين السور بعضها مع بعض، لنكون على بينة من هذا الأمر ولكي نضعه في الحسبان عندما نحاول تفسير السورة تفسيرًا موضوعيًا لندرك أن الفاصل الزمني لا دخل له في الحكم بمرامي السورة وأهدافها، فكما أن الزمن لم يكن له اعتبار قبل نزول القرآن إلى اللوح المحفوظ ثم إلى بيت العزة في السماء الدنيا، أُلغي هذا الاعتبار أيضًا بعد جمع القرآن بين دفتي المصحف، ولم يبق له إلا دلالات مساعدة في إلقاء الأضواء على مضمون الآية أو الحكم الذي تشتمل عليه الآية الكريمة، وتبقى القاعدة المطردة التي استنتجها جهابذة علماء هذه الأمة نصب عين كل باحث وهي: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب".

أولاً– تعريف علم المناسبات:

المناسبة في اللغة: المقاربة والمشاكلة.

وفي الاصطلاح: هي الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه. وفي كتاب الله تعني ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها. وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها.

ثانيًا– أهمية علم المناسبات وأقوال العلماء فيه:

علم المناسبات بين سور القرآن الكريم أو بين الآيات في السورة الواحدة من العلوم الدقيقة التي تحتاج إلى فهم دقيق لمقاصد القرآن الكريم، وتذوق لنظم القرآن الكريم وبيانه المعجز، وإلى معايشة جو التنزيل، وكثيرًا ما تأتي إلى ذهن المفسر على شاكلة إشراقات فكرية أو روحية.

وهو علم يجعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض، فيقوي بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء. وهو علم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المقال لما اقتضاه من الحال.

قال القاضي أبو بكر بن العربي المتوفى سنة 543هـ في "سراج المريدين": "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسعة المعاني منتظمة المباني، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة. ثم فتح الله عز وجل لنا فيه، فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه".

قال الزركشي: "وقال بعض مشايخنا المحققين –وسماه السيوطي في الإتقان: الشيخ ولي الدين الملوي، قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلًا وعلى حسب الحكمة ترتيبًا وتأصيلًا، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف كما أنزله جملة إلى بيت العزة، ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها تكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جم. وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له"[2]. ا. هـ.

قال البقاعي في نظم الدرر: "وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللب، وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين: أحدهما: نظم كل جملة على حيادها بحسب التركيب، والثاني: نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب، والأول أقرب تناولًا وأسهل ذوقًا، فإن كل من سمع القرآن بما تلته وما تلاها خفي عليه وجه ذلك، ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض متنائية المقاصد فظن أنها متنافرة، فحصل له من القبض والكرب أضعاف ما كان حصل له بالسماع من الهز والبسط، ربما شككه ذلك وزلزل إيمانه وزحزح إيقانه ... إلى أن يقول: فإذا استعان بالله وأدام

الطرق لباب الفرج بإنعام التأمل وإظهار العجز والوقوف بأنه في الذروة من إحكام الربط كما كان من الأوج من حسن المعنى. فانفتح له ذلك الباب ولاحت له من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار. رقص الفكر منه طربًا وشكر الله استغرابًا وعجبًا وشاط لعظمة ذلك جنانه فرسخ من غير مرية إيمانه ... " إلخ.

ويقول الرازي: "علم المناسبات علم عظيم أودعت فيه أكثر لطائف القرآن وروائعه، وهو أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول".

أقوال الرافضين لهذا العلم:

كانت تلك أقوال المؤيدين للبحث عن وجه المناسبة بين الآيات في السورة الواحدة وبين السور المتعددة، إلا أن هذا الاتجاه لم يكن مسلمًا به عند جميع العلماء ووجد من يقول إن هذا البحث تكلف محض تأباه طبيعة نزول القرآن، منجمًا، ولم ينقل شيء من ذلك عن سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين. ولعل أقدم من رفع صوته مستنكرًا لهذا الأمر عز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة 660هـ.

ونقل السيوطي في الإتقان قوله: "إن ربط آيات القرآن على ترتيب نزوله تكلف لا يليق، إذ إنه يشترط في حسن الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك، يصان عن مثله حسن الحديث فضلًا عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض".

كما نقل عن الإمام أبي حيان صاحب البحر المحيط كلامًا شبيهًا بكلام العز بن عبد السلام وقد ذكر الإمام الشوكاني في تفسيره فتح القدير، حجج المنكرين لهذا اللون من الربط بين الآيات وأيدهم بحجج وضرب أمثلة، وهو يرد على القائلين بوجود المناسبات. وننقل فيما يلي كلامه بتمامه لأنه يمثل وجهه نظر الرافضين:

يقول: اعلم أن كثيرًا من المفسرين جاءوا بعلم متكلف وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، استغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة. بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاءوا بتكلفات، وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلًا عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه ومن تأخره. وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرقًا على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قبضه الله عز وجل إليه.

وكل عاقل فضلًا عن عالم لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية لنزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها بل قد تكون متناقضة كتحريم أمر كان حلالًا، وتحليل أمر كان حرامًا، وإثبات أمر لشخص أو أشخاص تناقض ما كان قد ثبت لهم قبله، وتارة يكون الكلام مع المسلمين وتارة مع الكافرين، وتارة مع من مضى وتارة مع من حضر، وحينًا في عبادة، وحينًا في معاملة، ووقتًا في ترغيب ووقتًا في ترهيب، وآونة في بشارة وآونة في نذارة، وطورًا في أمر دنيا وتارة في أمر آخرة، ومرة في تكاليف آتية ومرة في أقاصيص ماضية.

وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف ومتباينة هذا التباين الذي لا يتيسر معه الائتلاف، فالقرآن النازل فيها باعتبار نفسه مختلف كاختلافها، وهل هذا إلا من فتح أبواب الشك وتوسيع دائرة الريب على من في قلبه مرض، أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور؟... هذا على فرض أن نزول القرآن كان مرتبًا على هذا الترتيب الكائن في المصحف، فكيف وكل من له أدنى علم بالكتاب وأيسر حظ من معرفته يعلم علمًا يقينًا أنه لم يكن كذلك، ومن شك في هذا –وإن لم يكن مما يشك فيه أهل العلم– رجع إلى كلام أهل العلم العارفين بأسباب النزول، المطلعين على حوادث النبوة، فإنه يثلج صدره وينزل عنه الريب بالنظر في سورة من السور المتوسطة، فضلًا عن المطولة، فإنه لا محالة يجدها مشتملة على آيات نزلت في حوادث مختلفة وأوقات متباينة، لا مطابقة بين أسبابها، وما نزل فيها في الترتيب، بل يكفي المقصر أن يعلم أن أول ما نزل {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} وبعده {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر} ، {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} ، وينظر أي موضع هذه

الآيات والسور في ترتيب المصحف. وإذا كان الأمر هكذا، فأي معنى لطلب المناسبة بين آيات نعلم قطعًا أنه قد تقدم في ترتيب المصحف ما أنزل الله متأخرًا، أو تأخر ما أنزل الله متقدمًا؟! فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة، وما أقل نفع مثل هذا وأنزر ثمرته وأحقر فائدته، بل هو عند من يفهم ما يقول، وما يقال له من تضييع الأوقات وإنفاق الساعات في أمر لا يعود بنفع على فاعله، ولا على من يقف عليه من الناس. ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التي يعثر في ساحاتها كثير من المحققين. ا. هـ.

هذه وجهة النافين لهذا اللون من البحث، وهذه حججهم وردودهم على القائلين بوجود المناسبات بين الآيات والسور. ولا شك أن هذا العلم دقيق المسالك خفي المدارك، وهو من العلوم التي تحتاج إلى بذل الجهد في التتبع والاستقصاء اللغوي لدلالات الألفاظ القرآنية، والإحاطة بأسباب النزول، والتوسع في أفانين علم البلاغة والأساليب البيانية، وفوق كل ذلك ينبغي أن يكون الباحث ذا حس مرهف ونفس شفافة وذكاء لماح ليدرك سر هذا الترتيب للآيات التي وضعت بجوار بعضها، وقد أكدت الأخبار الصحيحة عن المعصوم أن الفاصل الزمني بينها يتجاوز السنوات العديدة أحيانًا.

ونحن نسلم أن بعض العلماء الباحثين في وجوه المناسبات قد تكلفوا أحيانًا في استخراج وجه المناسبة، ولكن تكلفهم هذا لا ينبغي أن يكون ذريعة لرد الوجوه المعقولة المقبولة التي ذكرها الآخرون. ونؤمن إيمانًا جازمًا أن ترتيب الآيات في السور كان بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم لكتبه الوحي، ولم يكن لأحد رأي واجتهاد في ذلك. ونقول إن هذا الترتيب الموحي به لم يكن جزافًا ولا اعتباطًا أو عبثًا وننزه كلام الباري سبحانه وتعالى عن كل ذلك.

كما نقول إن القول بوجود المناسبات أمر يحتمه الاعتقاد بتنزيه كلام الله سبحانه وتعالى عن الفوضى والتناقض: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا} ﴿النساء: 82﴾ .

وعلى الباحث أن يبذل قصارى جهده للتعرف على وجه المناسبة بين الآيات، فإن ظهر له شيء من ذلك فذلك نعمة من الله تعالى وفضل عليه، وله أن يقول به ويظهره خدمة لكتاب الله

تعالى، وإن خفي عليه وجه المناسبة فعليه أن يمسك ولا يتكلف، وينسب علم ما خفي عليه إلى منزل الكتاب الذي أمر بترتيبه على هذا الشكل، ولا يدرك أسرار كتاب الله كلها أحد من البشر {قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} ﴿الفرقان: 6﴾ .

وسنضرب أمثلة ونماذج على وجه المناسبات بين الآيات في السورة الواحدة وبين السور المتعددة، لعلنا نُكَوِّن بعد ذلك فكرة عن الموضوع وبعدها نتخذ موقفًا من التأييد أو الرفض.

ثالثا- ظهوره وأهم المؤلفات فيه:

يُعَد الإمام أبو بكر النيسابوري المتوفى سنة 324هـ أول من أظهر علم المناسبات في بغداد، وكان يزدري على علماء بغداد لجهلهم وجوه المناسبة بين الآيات، وكان لا يني يقول إذا قرئت عليه الآية أو السورة: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه إلى جنب هذه السورة؟

وكذلك أبو بكر ابن العربي المالكي المتوفى سنة 543هـ وتقدمت الإشارة إلى كلامه ضمن كلام البقاعي. كما تجد ذكر المناسبات من خلال تفسيره "أحكام القرآن".

ومن المكثرين في إيراد المناسبات بين الآيات الإمام فخر الدين الرازي المتوفى سنة 606هـ في تفسيره الكبير المسمى بمفاتيح الغيب.

وقد أفرده بالتصنيف الأستاذ أبو جعفر بن الزبير الأندلسي المتوفى سنة 807هـ في كتابه "البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن".

وقد خص الزركشي المتوفى سنة 794هـ في كتابه "البرهان في علوم القرآن" فصلًا خاصًا تحت عنوان "النوع الثاني" معرفة المناسبات بين الآيات، تحدث فيه عن أهمية هذا العلم وضرب أمثلة على المناسبات بين السور، وبين الآيات في السورة الواحدة.

ومن أوسع المراجع في هذا العلم كتاب "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" لبرهان الدين البقاعي المتوفى سنة 885هـ، حيث ذكر المناسبات بين آيات القرآن الكريم سورة سورة. ويقع كتابه في اثنين وعشرين جزءًا وقد طبع في الهند.

وألف الإمام السيوطي المتوفى سنة 911هـ كتابًا خاصًا سماه "تناسق الدرر في تناسب السور" تحدث فيه عن أهمية علم المناسبات وذكر وجوهًا للمناسبات بين سور القرآن الكريم.

كما خصص النوع الثاني والستين من كتابه الإتقان في علوم القرآن للحديث عن "مناسبات الآيات والسور" ذكر فيه أغلب ما ذكره الزركشي في البرهان، وزاد عليه في الأمثلة.

ومن العلماء المعاصرين الذين كتبوا في علم المناسبات الشيخ عبد الله محمد الصديق الغماري، كتب كتابًا سماه "جواهر البيان في تناسب سور القرآن" ذكر فيه وجه المناسبة بين سور القرآن سورة سورة. كما تحدث الشيخ محمد عبد الله دراز في كتابه "النبأ العظيم" عن المناسبات بين آيات سورة البقرة.

أقسام المناسبات في القرآن الكريم

القسم الأول: المناسبات في السورة الواحدة

وقبل البدء بعرض أنواع المناسبات لا بد لنا من ذكر أمر مجمع عليه بين العلماء وهو أن ترتيب الآيات في السورة الواحدة أمر توقيفي لا مجال فيه للاجتهاد، ولم يأت هذا الإجماع من فراغ بل هناك الأدلة الكثيرة التي تفيد على أن ترتيب الآيات في السورة كان توقيفيًا فمن ذلك:

أ- ما أخرجه الحاكم في المستدرك بسند على شرط الشيخين عن زيد بن ثابت أنه قال: "كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع" ومعنى تأليف القرآن من الرقاع ترتيب السور والآيات وفق إشارة النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيفه.

ب- أخرج البخاري عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ} قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟

"المعنى: لماذا تثبتها بالكتابة أو تتركها مكتوبة وأنت تعلم بأنها منسوخة".

قال: "يابن أخي لا أغير شيئًا من مكانه"

جـ- أخرج أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالسًا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: " أتاني جبريل، فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْأِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى} ﴿النحل: 90﴾ ". فهذا يدل على أن تعيين أماكن الآيات في السورة يكون بأمر من جبريل من رب العزة سبحانه وتعالى.

د- روى مسلم عن عمر قال: ما سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء أكثر ما سألته عن الكلالة حتى طعن بأصبعه في صدري وقال: "تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء" ، فلو لم تكن الآيات مرتبة في السورة لم يعرف أولها من آخرها.

وكذلك ما رواه مسلم عن أبي الدرداء مرفوعًا: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال".

وفي لفظ عنده: "من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف ... ".

هـ- وكذلك ما ثبت في الصحاح أنه كان يقرأ في أوقات معينة بسورة معينة.

كل ذلك يدل على أن ترتيب الآيات في السور كان معلومًا للصحابة رضوان الله عليهم وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرئهم بهذا الترتيب، وإلا لما استطاع أن يشير لهم إلى مضمون سورة باسمها ولا تحدد آيات بعينها بالإشارة إلى أرقامها أو مكانها.

والأصل في الآيات ضمن السورة أن تكون بينها وجه مناسبة" لأنها في الغالب "وبخاصة في السور القصيرة" تعرض موضوعًا معينًا، فالأصل أن يكون السياق موحدًا. ولا ينتقل من موضع إلى آخر، أو لا يبحث موضوع جديد بعد الموضوع الأول إلا وهناك وجه مناسب ورابط بين الموضوعين. ومعرفة فترات زمنية متباعدة، أو تكون الموضوعات متباينة في نظر القارئ أو في حال ظهور جملة وكأنها مستقلة عما قبلها وما بعدها، عند ذلك يأتي دور الغواصين على المعاني لمعرفة الرابط والمناسبة بين الآيات.

القسم الثاني: المناسبات بين السور

مدخل..

إن القول بوجود المناسبات بين السور يعتمد على القول بأن ترتيب السور في المصحف توقيفي لا اجتهادي.

لذا كان لا بد من عرض أقوال القائلين بذلك مع أدلتهم، ومناقشة أدلة القائلين بأن ترتيب السور كان باجتهاد من الصحابة رضوان الله عليهم.

ذهب جمهور العلماء إلى أن ترتيب السور في المصحف توقيفي أيضًا للأدلة الكثيرة في ذلك، وسنورد جملة منها فيما بعد.

أما من ذهب إلى أن اجتهادي أو بعضه توقيفي وبعضه اجتهادي فلا مستند لهم في قولهم سوى أمرين أو بالأحرى شبهتين:

الشبهة الأولى:

قالوا إن مصاحف بعض الصحابة لم تكن مرتبة ترتيب مصحف عثمان رضي الله عنه فمصحف علي رضي الله عنه كان أوله: اقرأ ثم المدثر ثم "ن" ثم المزمل ثم تبت ثم التكوير وهكذا إلى آخر المكي والمدني، أي كان مرتبًا حسب زمن النزول.

ومصحف ابن مسعود كان أوله البقرة ثم النساء ثم آل عمران.

وهذا لا حجة فيه لهم لأن مصاحف الصحابة كانت مصاحف شخصية لم يحاولوا أن يلزموا بها أحدًا، ولم يدعوا أن مخالفتها محرمة. والمرء قد يكتب لنفسه مصحفًا أو سورًا معينة يخشى من التباس الأمر فيها نسيانًا أو غير ذلك. فيكتب بالطريقة التي يشاء وهذا ما يفسر لنا القول بأن بعض الصحابة لم يكتب في مصحفه المعوذتين.

ولهذا لما اجتمعت الأمة على ترتيب عثمان رضي الله عنه أخذوا به وتركوا مصاحفهم الشخصية، ولو كانوا يرون أن ترتيب المصحف اجتهادي لدعوا إلى التمسك بترتيبهم الخاص ولم يتنازلوا عنه.

الشبهة الثانية:

اعتمدوا على حديث ضعيف جدًا -بل يمكن أن يقال إنه لا أصل له- لأن إسناده يدور على "يزيد الفارسي" الذي رواه عن ابن عباس. ويزيد الفارسي هذا يذكره البخاري في الضعفاء.

فقد ورد هذا الحديث على الشكل التالي:

حدثنا يحيى بن سعيد ثنا سعيد ثنا عوف ثنا يزيد -يعني الفارسي- قال أبي أحمد بن حنبل وثنا محمد بن جعفر ثنا عوف عن يزيد قال: قال لنا ابن عباس رضي الله عنهما: قلت لعثمان بن عفان: "ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا -قال ابن جعفر- بينهما سطرًا بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال؟ ما حملكم على ذلك؟ " قال عثمان رضي الله عنه: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مما يأتي عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد وكان إذا أُنزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده يقول: "ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا" وينزل عليه الآيات فيقول: "ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا" وينزل عليه الآية فيقول: "ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا" وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة وبراءة من آخر القرآن. فكانت قصتها شبيهة بقصتها فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها وظننت أنها منها فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطرًا "بسم الله الرحمن الرحيم" قال ابن جعفر ووضعتها في السبع الطوال.

وهذه الرواية الضعيفة لا تقوم بها حجة، ولا تقف أمام الروايات الكثيرة الصحيحة عن الصحابة رضوان الله عليهم الذين كانوا يحزبون القرآن على الترتيب المدون في المصحف. وإجماع الأمة على هذا المصحف بترتيبه الحالي، ولو كان الأمر محل الخلاف لنقلت إلينا الاجتهادات الكثيرة وبخاصة ما يتعلق بأمر كهذا الأمر "ترتيب المصحف".

وذهب الجمهور إلى أن ترتيب السور في المصحف توقيفي، واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

– ما رواه أحمد وأبو داود عن أوس بن أبي أوس عن حذيفة الثقفي قال: "طرأ علي حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه" فسألْنا أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة وثلاث عشرة، وحزب المفصل من "ق" حتى نختم.

فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

– أخرج ابن أشتة في كتاب المصاحف عن طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال: سمعت ربيعة يسأل: لم قُدِّمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة وإنما أنزلتا بالمدينة؟ فقال: قدمنا وألف القرآن على علم ممن ألفه به ومن كان معه فيه واجتماعهم على علمهم بذلك فهذا مما ينتهي إليه ولا يسأل عنه.

ومما استدل به الجمهور على أن ترتيب السور في المصحف توقيفي قول عبد الله بن مسعود، في بني إسرائيل والكهف ومريم: "إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي" أي من قديم ما أنزل، وقد ذكرها بالترتيب الوارد في المصحف.

كما أن الجمع بين السور المتشابهة في فواتحها مرة، والتفريق بينها مرة أخرى يدل على أن ذلك لم يكن عن اجتهاد، فقد وردت السور المبدوءة بـ"حم" وهي سورة (غافر، وفصلت، والشورى، والزخرف والدخان، والجاثية، والأحقاف)، وتسمى آل حاميم أو الحواميم مجتمعة في مكان واحد، بينما فرقت المسبحات، وهي السور التي تبدأ بـ"سبح، يسبح، سبح، سبحان" فكلمة (سبَّحَ) وردت في أول سورة (الحديد والحشر والصف)، و(يسبِّحُ) في أول سورة (الجمعة والتغابن) و(سبِّحْ) في أول سورة (الأعلى) و(سبحان) في أول سورة الإسراء. والمنطق البشري يقتضي التوحيد في الجميع أو التفريق في الجميع.

لقد عرف عن الصحابة رضوان الله عليهم حرصهم الشديد على حفظ القرآن الكريم، وكل ما يتعلق بشئونه" وقد وقف أبو بكر مترددًا في قضية جمعه في مكان واحد عندما اقترح عمر بن الخطاب ذلك بعد حروب الردة خشية استشهاد القراء وضياع شيء مما كتب عليه، وكذلك كان تردد زيد بن ثابت عندما أسندت إليه المهمة، وكل منهما يقول: كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فكيف يتم ترتيب المصحف باجتهاد عثمان بن عفان ومن معه، ولا يسمع صوت واحد يعترض عليهم في ذلك؟ اللهم إلا أن يكون عن علم منهم جميعًا أن ترتيب السور في المصحف بهذا الشكل كان معلومًا للجميع أنه بتوقيف من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإذا سُلِّم هذا فلننظر إلى أنواع الروابط بين سور القرآن الكريم، ولنضرب لذلك أمثله موضحة.

المصادر

1. إصلاح الوجوه والنظائر للدامغاني: ط. دار العلم للملايين.
2. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: د صلاح عبد الفتاح الخالدي. الطبعة الثانية 2008. دار النفائس للنشر والتوزيع.
3. التفسير والمفسرون للذهبي:
4. صور الإعلام الإسلامي في القرآن الكريم – دراسة في التفسير الموضوعي
5. المدخل إلى التفسير الموضوعي – عبد الستار سعيد – دار الطباعة والنشر الإسلامية
6. دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور زاهر عواض:
7. المفردات في غريب القرآن – الراغب الأصفهاني – مكتبة الأنجلو مصرية
8. مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية بتحقيق عدنان زرزور:
9. فيض الرحمن فى التفسير الموضوعى، توفيق علوان –الناشر مكتبة الرشد–بيروت .